# بناء قريش
# سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ودينياً

## تمهيد

والآن وقد تتبعنا خروج قريش من كنانة وانفرادها بوحدة قبلية قائمة بنفسها مستقلة عن كنانة ، نعود إلى الوراء قليلاً لكى نتتبع خط النسب المنحدر من لؤى بن غالب بن فهر . وقد سبق أن ذكرنا أن الأسماء الواردة فى خط النسب - قبل قصى - هى فى الغالب أسماء تجمعات قبلية اشتهرت فى التاريخ بالأسماء التى تراها فى خط النسب ، وهذا لا يُدخِل أى تغيير فى خط النسب ، فالأسماء تظل على حالها ولكن طبيعتها هى التى تتغير ، وقد سبق أن بيَّنا أن كنانة لا يمكن أن يكون اسم رجل بل هو اسم تجمع قبلى . ونفس الشىء ينطبق على النضر بن كنانة ، والنضر هذا فيما تقول النصوص اسمه قيس وكنيته أبو يخلد ويخلد اسم ابنه الثانى لا الأول ، وابن يخلد يسمى (بدر) ، وبدر هو قريش فكيف نفسر هذه الأحجية ؟ ولماذا يكون لكل عَلَم اسمان ؟ وقد حللنا ذلك الإشكال بقولنا إن قيساً هو اسم الرجل ، وإن النضر هو اسم التجمع القبلى ، وهذا لا يمنعنا من أن نقول مالك بن النضر ، فيكون مالك منحدراً من التجمع القبلى والمسمى بالنضر.

ولا حاجة بنا والحالة هذه إلى أن نبحث فى معنى «النضر» ، فما دام عَلَماً على تجمع قبلى أو جماع نسب فقد يكون أى شىء.

وبعد مالك بن النضر يجىء فهر بن مالك ، وهنا وقد اقتربنا من منطقة التاريخ وخرجنا من منطقة الظلام إلى منطقة شبه الظل لا يستطيع المؤرخون الاستمرار فى ذكر أسماء القبائل على أنها أسماء أشخاص ، ففهر ليس اسم رجل مفرد ولا قريش

كذلك ، ولكن فهراً هو جُماع قريش فى قول هشام الكلبى برواية الزبير بن بكار ، هنا لا نشك فى أننا أمام قبيلة انفصلت عن كنانة ، وفى ذلك يقول النسابة : «ومن جاوز فِهْراً فليس من قريش» أى : أن قريشاً ظهرت إلى الوجود قبيلة مستقلة أيام ظهور اسم فهر ، وربما كان هو الرئيس الذى ظهر التجمع فى أيامه . بعد ذلك يختفى اسم فهر وكذلك تختفى النسبة إليه فى عمود النسب ، فنحن لا نقول قصياً الفهرى أو عبد المطلب الفهرى ، وإنما انفردت باسم فهر جماعتا الحارث بن فهر ومحارب بن فهر ، ومن هذين الفرعين ومن انضم إليهما تكونت مجموعة قريش الظواهر ، وأما الذين لزمهم اسم قريش فهم أولاد لؤى بن غالب. وخاصة كعب بن لؤى وعامر بن لؤى ، وهذان الفرعان ومن انحدر منهما هم البطاح أى المجموعة التى تزعمها قصى وقام بها بعمله الكبير ، فكأننا فى الحقيقة من أيام لؤى بن غالب أمام مجموعتين انفصلتا عن كنانة وكلتاهما تنتسب إلى فهر ، ولكن واحدة منهما انفردت باسم قريش والنسبة إليها والأخرى احتفظت باسم فهر وانتسبت إليه ، وإذا نحن قلنا إن قريشاً ظهرت وتميزت بنفسها من ذلك التاريخ فى حين أن غالبية الكنانيين من فرع النضر أصبحوا هم الفهريين لم نجاوز الحقيقة بكثير بدليل أن الفهريين - رغم انضمام بعضهم إلى قصى فيما بعد ودخولهم مجموعة قريش تحت اسم الظواهر - ظلوا بدواً يحومون حول مكة ، وسنجد أن زعيماً من زعمائهم يسمى كرز بن جابر الفهرى يعتدى على سرح المدينة أيام الرسول ﷺ ويطارده الرسول حتى قرب موقع بدر ولا يدركه فيعود .

ونتابع سيرنا مع الفرع الذى أصبح الآن يسمى قريشاً ونقف عند غالب أو بنى غالب بن فهر، فنجد أن اسم قريش يلزم ابنه فرعاً منهم هو فرع بنى لؤى ، أما تيم الأدرم الذى يُذكر على أنه ابن - أو فرع - من بنى غالب فينفصل عن التيار ويقول عنه ابن قتيبة : بنو الأدرم من أعراب قريش ليس بمكة منهم أحد[1] ويقول الزبير بن بكار: «وبنو الأدرم هؤلاء هم أعراب مكة وهم من قريش الظواهر لا من قريش البطاح»[2].

وهكذا نرى أن قريشاً فى تكوُّنها كانت تُسقط من تكوينها من الفروع ما ينفصل

(١) المعارف ، ص ٣٢ - والروض الأنف للسهيلى ١/ ٧١.
(٢) انظر : ابن حبيب ، المحبر : ص ١٦٨ .

عنها ويرغب عن الدخول فى جماعها . وتُدخِل أيضاً فى حلفها - بل فى صُلبها - مَن رغب فى حلفها والانضمام إليها ، وذلك لأن انفصالها عن كنانة وقيامَها بأمر نفسها وزعامة حلفها الجديد ، كل ذلك أوقع النفور بينها وبين بعض أخواتها من فروع كنانة وأظهرُ مَثَل لذلك ما كان بينها وبين فرعين من فروع عبد مناة بن كنانة ، فقد حالفت قريش بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة على بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة . لأن القبيلة فى العصر الجاهلى لم تكن كياناً اجتماعياً تربط أفراده بعضهم إلى بعض روابط القرابة والدم وحدها ، بل كانت تكويناً سياسياً مرناً يقوم على المصالح ، فهى تضم إلى كيانها من يُحالفها وينفعها من القبائل والأفراد أو البطون ، وتعادى ، بل تفصل من كيانها مَنْ يضرها أو يخرج على إجماعها من أهل عَصَبَتها أنفسهم ، وهى دائماً فى تجمُّع وتفرُّق ثم تجمع ، تحت نفس الأسماء أو تحت أسماء أخرى ، وسنرى أمثلة من ذلك كله فيما يلى من تاريخ قريش.

وعلى طول تاريخ قريش يستمر العنصر القضاعى نشيطاً فى كيانها ، فكعب بن لؤى مثلاً أمه قضاعية ، واسمها ماوية ، وحيثما ورد اسم ماوية تبادر إلى الذهن أنه تحريف لمارية ، كأنما أراد النسابون فيما يتعلق بتاريخ كنانة وقريش تخليص قبيلتى الرسول الكبرى وهى كنانة ، والصغرى وهى قريش من كل أثر مسيحى.

وكلاب بن مرة اسمه حكيم وكنيته أبو زهرة . مرة أخرى نعود إلى الاسم المزدوج ، ومن الواضح أن كلاباً اسم تجمع صغير نشأ داخل قريش واستمر خط النسب أما الباقون فقد احتفظوا باسم فهر، وكأنما ثقُل على النسابة أن يجدوا فى خط النسب لفظ كلاب ، فقالوا : إن اسم كلاب كان حكيماً أما كلاب فتسمية غلبت عليه لأنه كان كثير الصيد بالكلاب فكان إذا مر بكلابه قالوا : هذه كلاب بن مرة فغلب عليه . وهذا تكلف لا معنى له . وأم كلاب كانت من بنى الحارث بن فهر بن مالك ابن كنانة .

وقد تفرق الكثير من البطون التى تفرعت عن لؤى وانفصلت عن خط النسب الذى ميز قريشاً عن غيرها . فإن اسم قريش انحصر كما رأينا فى فرعين من لؤى هما

كعب وعامر ابنا لؤى بن غالب ، ومن هذين البطنين وفروعهما تكونت الكتلة الأساسية التى أيدت قُصياً وحملت اسم قريش ودخلت به مكة ، واحتلت قلبها أو بطحاءها ، وهؤلاء هم قريش البطاح أو الأبطحيون ، أما بقية بطون لؤى فبعضها انضم إلى مجموعة بنى الحارث وبنى محارب المتفرعين عن مالك - وهى مجموعة فهر - وبعضها دخل فى مجموعات قبلية أخرى ، فبنو سامة بن لؤى أصبح اسمهم بنى ناجية واستقروا بنواحى عمان [1] ، وبنو خزيمة بن لؤى أصبح اسمهم بنى عائذة ودخلوا فى بنى أبى ربيعة الشيبانيين ، وهذا إن دل على شىء فهو يدل على أن بطون كنانة التى تفرعت عنها قريش كانت تنتقل على مهل من الشام جنوباً ، وهذه القبائل لم تنتقل كلها إلى الحجاز دفعة واحدة بل كانت تسير فى بطء كأنها نهر الثلج ، وعلى طول الطريق كانت تنفصل عنها فروع وتستقر فى مواطن جديدة وتدخل فيها فروع ويتغير اسمها بحسب ما يجِدُّ من الظروف.

ومُرَة بن كلاب يمثل مرحلة حاسمة فى تاريخ قريش . وهو كما قلنا اسم تجمع ، وفى هذه المرحلة تحدد تكوين صُلب قريش من فرعى كعب بن لؤى وعامر بن لؤى وما تفرع عنهما ، وبدأت تظهر الوحدات الأساسية التى تكوَّن منها صلب قريش وهم الذين سيصبحون أيام قصى قريش البطاح ، ويدخل فى جماعة قريش بنو سهم وبنو جمح فَرْعَا هُصيص بن كعب ، وهو فرع معادل لفرع مُرَة . وهنا أيضاً يظهر فرع عدى - رهط عمر بن الخطاب - وهم فرع صغير .

ومعظم البيوت التى تفرعت عن مُرة ستكون من عَصَبة قريش الأساسية ، وهنا نلقى ثلاثة بيوت تستحق كل منها وقفة قصيرة منا ، فهنا يظهر بيت يقظة بن مرة ، وهو البيت الذى سيُعرف فيما بعد باسم مخزوم . أما بيت القَلَمُس أخى كلاب بن مرة فإنه يدعو للتأمل. ومن أغرب ما نقرأ عند المصعب الزبيرى أن القلمس هذا ابن أخى سُرير بن مرة ، وعلى هذا فلابد أن يكون اسمه القلَمُس بن فلان بن مُرة بن كعب بن لؤى وهكذا إلى كنانة ، ولكن المصعب الزبيرى يقول : إن اسم القلمس عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة ، وهذا أمر مُحيِّر ، فليس لدينا بين أسماء أولاد كنانة

(١) فى الأصل عند المصعب الزبيرى : نزلوا بعمان بفتح العين وعدم تشديد الميم إلى عمان الشام.

أو الفروع التى تفرعت عنه ابن أو فرع يسمى الحارث ، والذى لدينا هو الحارث بن فهر بن مالك بن كنانة ، وهؤلاء دخلوا فى مجموعة فهر دون أن يكون أصلهم فى كنانة، ومن أين أتى عدى هذا وما نسبه ؟ وكيف يذكر المصعب الزبيرى هذا دون أن يستوقفه الأمر ؟ وكيف يكون الرجل اسمه القلمس بن فلان بن مرة بن كعب ثم يقال لنا : إنه عدى بن عامر وينتهى به إلى كنانة ؟

ثم إن القَلَمُس هذا لابد أن يستوقف نظرنا لأنه فَيْناً يقال لنا ابن أخى سرير بن مرة وهو أول من نسأ الشهور ، وقد انقرض سرير وورث ونسأ الشهور بعده ابن أخيه القَلَمُس واسمه عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن كنانة . والقلمس هذا هو الاسم الثانى لعدى ، ولا يمكن أن يكون اسماً ، خصوصاً إذا قيل لنا إنه ورث النسىء عن عمه سرير ، والنسىء هذا هو حساب الأيام والشهور والأموال والربوات ، والقرشيون كانوا أميين فى غالبيتهم ، فكان الذى يكتب ويحسب لهم فى البيع والشراء وحساب الأيام والربوات القلمس هذا .

ونظرة على هذا الاسم نرى أنه الصورة العربية للفظ Calamus اللاتينى ومعناه القلم، ومنه جاء لفظ القلم العربى وهو أداة الكتابة والحساب والنسىء . وسُرَير بن مرة ، وهو عم قصى كان هو الذى يحسب لقريش ، فلما مات ورث العملَ عنه ابنُ أخيه : عَدِى صاحب القلمس والقلمس الكاتب بالقلم ، ومن هنا فليس من الضرورى أن يكون ابن أخيه لَحاً ، وإنما ابن أخيه فى صنعة الكتابة والحساب والنسىء. وفى أيام قصى بن كلاب بن مرة وبعد أن تستقر قريش فى مكة وتنتظم أمورها وتزدهر تجارتها ستزداد الحاجة إلى النَّسَأة القلامس، أى : أصحاب الأقلام ، وسيكون لهم دور كبير نعرفه جميعاً ، فهم الصيارفة الكَتَبة الحَسَبَةُ المرابون .

## قصى بن كلاب والبناء العسكرى والسياسى لقريش

### أخبار قصى حتى توليه زعامة قريش

وأخيراً ، نصل إلى قصى بن كلاب ، وهو دون شك شخصية تاريخية واضحة المعالم .

ومعه نخرج من ضباب الأساطير والقصص الشعبى إلى حقائق التاريخ ، وليس من العسير أن نستبعد القصص الشعبى ونركز كلامنا على الشخصية التاريخية وما قامت به من دور تاريخى.

فالروايات التى بين أيدينا تقول إن قصياً ليس اسمه الحقيقى وإنما اسمه زيد ، وإن أباه كلاباً ، أنجب ولدين : زيداً هذا وزُهرة. وقصى كان الولد الأكبر ويليه زُهرة - وهو هنا اسم رجل أو قد يكون اسم البيت ، وزهرة نفسه غير معروف لنا مما يوحى فعلاً بأنه اسم بيت ، ولكن معظم أفراد بيت زُهرة معروفون لنا وهو على الجملة بيت سيكون دائماً حليفاً لبيت قصى قبل الإسلام ، أما بعده فإن بنى زهرة كانوا - إلا فيما يتعلق بعبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة وابنه الأسود بن عبد يغوث - من أكابر بيوت الإسلام فى عهد النبى ﷺ وبعده . ويكفى أن منهم آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة أم الرسول ﷺ وهالة بنت وُهيب بن عبد مناف وقد تزوجها عبد المطلب بن هاشم فى نفس الوقت الذى تزوجت فيه آمنةُ بنت وهب عبدَ الله ، وأنجبت هالة حمزة بن عبد المطلب عم الرسول وصاحبه ، بطل الإسلام المشهور .

ويبدو أن قصياً سُمِّى بهذا الاسم من مولده ، ولا داعى للقول بأنه سُمى كذلك لأنه تربى قَصِياً أى بعيداً عن آل أمه وهم من قضاعة ، أما اسم زيد فلا معنى له فى الحقيقة ، فعمرو وزيد وامرؤ كلها ألفاظ بمعنى شخص أو رجل والنحويون أنفسهم استعملوا لفظى زيد وعمرو فى أمثلتهم النحوية ، فهم يقولون : ضرب زيد عَمْراً يريدون ضرب رجل رجلاً ، وما الذى كان يَحُوجهم إلى اختيار اسم عمرو هنا ليكون مضرب المثل مع صعوبة رسمه فى حالة النصب مثلاً . ولكن الذى يعنينا أكثر هنا هو ما تقوله الروايات من أن قصياً تربى فى منازل فرع من فروع قضاعة هو فرع بنى عذرة بن سعد هُذَيم المشهورين فى عالم الشعر وإليهم ينسب الشعر العُذْرى ، ومنهم جَميل بن مَعْمَر صاحب بثينة ، وهذه حقيقة تهمنا هنا فلنقف عندها بعض الوقت .

فإن القصة تقول : إن كلاب بن مُرة والد قصى تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل وهو خير بن حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جُعثُمة وهو يشكر من الأزد ، فولدت له زيداً وزُهرة ، ثم توفى عنها فتزوجت فاطمة - أم قصى - ربيعة

ابن حرام بن ضنة بن عبد كبير بن عذرة بن سعد (هذيم) بن سعد بن زيد بن قضاعة. وهذا هو كلام السُّهيلى [1].

وعلى الرغم من أن بعض أئمة مؤرخينا مثل الطبرى وابن الأثير وابن عبد البر رووا هذه الحكاية وعدَّلوا بعض الشىء فى سياق نسب قصى إلا أننا لابد أن نقرر أن القصة كلها لا تستقيم ، وكلاب تزوج فاطمة القضاعية ومات عنها مُخَلِفاً ابنيه قُصياً وزهرة فتزوجت الأرملة رجلاً من بنى عذرة القضاعيين ، وكل هذا التعقيد لجأ إليه المؤرخون وأقروه ليبرروا تسمية قصى بأنه البعيد . أو الذى تربى بعيداً عن أهله قريش .

وأصحاب هذه القصة يفترضون أن كلاباً كان فى مكة وأن قصياً وُلِد ونشأ بعيداً عنها مع أن قريشاً لم تدخل مكة إلا على يدى قصى ، وقريش فى أيام كلاب كانت قد وصلت فى تنقلها فى الحجاز إلى قريب من منازل بنى سعد هذيم من قضاعة غير بعيد عن مكة.

والذى أوقع أولئك المؤرخين فى هذا الخطأ هو قولهم إن فاطمة أم قصى أزدية لأنها بنت سعد بن سيل - واسم سيل فى قولهم حمالة بن عوف بن عثمان بن عامر (وهو الجادر) بن جعثمة وهو يشكر من الأزد فى قولهم ، فإذا رجعنا إلى شجرة النسب وجدنا أن بنى عذرة أصلهم من قضاعة ، فهم بنو عذرة بن سعد هذيم بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن إلحاف بن قضاعة ، ووجدنا أن عذرة نشأت عنها ثلاثة بطون : عامر وكبير ورفاعة بنو عذرة ، وهذه البطون كلها دخلت أى امتزجت ببنى يَشكُر الأزديين . يقول ابن حزم : «فمن بطون بنى كبير بن عذرة بنو رِزاح بن ربيعة ابن حَرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة ، ورِزاح هذا هو أخو قصى بن كلاب لأمه» [2] لأن فاطمة أم قصى بعد وفاة زوجها تزوجت ربيعة بن حرام بن ضنة فولدت منه رزاحاً فكان رزاح أخاً لقصى لأمه ، ويورد لنا ابن حزم بعد ذلك عبارة فى الغاية من الأهمية بالنسبة لقصى وبنائه قريش ، قال : «ومن بطون بنى كبير بن

(١) السهيلى ، الروض الأنف ١/ ٨٤ ، وانظر ابن الأثير ٢/ ٨ ، والطبرى فى أخبار قصى.
(٢) ابن حزم ، الجمهرة ص ٤٤٨ .

عذرة رزاح بن ربيعة بن حرام بن ضنة بن عبد بن كبير بن عذرة ، ورزاح هذا هو أخو قصى بن كلاب لأمه ، وهو الذى نصر قصى بن كلاب على بنى بكر بن عبد مناة ، وهو الذى أخرج بنى نهد وبنى جَرْم وبنى حَوْتكة من بلاد قضاعة ، وهو الذى أخرج أيضاً بنى عمه رفاعة بن عذرة من جُملة بلاد بنى عذرة ، وبنو حُن بن ربيعة أخى رزاح بن ربيعة لأبيه وأمه وهما من قبيلة عُذْرة ، فبنو حُن هؤلاء أخوال قصى وهم عذريون قضاعيون ومنهم جَميل بن عبد الله بن مَعْمَر الشاعر وصاحبته بثينة أيضاً.

وهذا الكلام كله يعطينا حقائق جديدة عن أوليات قصى ، فإن قُصياً نشأ فى بلاد أمه فاطمة العذرية القضاعية ، ولابد أن بلاد بنى عذرة فى ذلك الحين لم تكن بعيدة عن مكة ، فهم أبناء عم جهينة القضاعيين ، وبنو جُهينة كانت منازلهم تصل إلى ذى خُشُب ، وعندما كبر قصى واشتد عوده وجمع قومه بنى كعب وبنى عامر أولاد لؤى الذين استمر فيهم اسم قريش دخل فى صراع مع بنى بكر بن عبد مناة الذين كانوا يمثلون كتلة كنانة ، فنصره أخوه لأمه رزاح بن ربيعة العذرى القضاعى وانضم بقومه إلى قريش وحارب الاثنان معاً بعض بطون قضاعة مثل بنى نهد وبنى جَرَم وبنى حوتكة ثم بنى رفاعة وأخرجوهم من بلاد عذرة وتوسع قصى وقومه وحليفه حرام ابن ربيعة بن جرم بن ضنة فى أرض بنى عبد مناة بن كنانة بعد أن انتصرا عليهم وازداد مركزه ومركز قريش ثباتاً.

لا معنى إذن للقول بأن قُصياً سُمِّى بذلك الاسم لأنه نشأ وتربى قَصِيّاً عن قومه . قصياً عن ماذا ؟ حقاً إنه نشأ وتربى فعلاً فى بلاد أمه العذرية ولكن عندما اشتد عوده وتنازع مع بقية كنانة استعان بأخيه لأمه وقومه القضاعيين على بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة ، واستقر بقومه فى موضع قريب من مكة ثم أخرج بعض بطون عذرة من مواطنها أثناء هذا الصراع الذى خاضه قصى لكى يبنى جاه قبيلته قريش ويسلخها نهائياً من بدن أمها كنانة ، ومن أمثلة قصور مؤرخينا قولهم : إن قصياً سمى بذلك لأنه كان قاصياً عن مواطن أهله.

قال النويرى ناقلاً عن الرُّشاطى - وهو من فقهاء الأندلس - أن قُصياً وقع بينه وبين أخيه ربيعة خلاف فعيَّره بالغربة ، وهم يفترضون أن أهله كانوا يسكنون مكة

مع أنهم لم يدخلوها إلا على يد قصى ! فلما قال ذلك لأمه قالت له : يا بنى ، أنت أكرم منه نفساً وأباً . أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام ، فأجمع قصى على الخروج ، فقالت له أمه : أقم حتى يدخل الشهر الحرام ، فتخرج فى حاج العرب ، فلما دخل الشهر الحرام خرج مع حاج قضاعة إلى مكة ، فحج وأقام بمكة [1]، وهذه غفلة من الرُّشاطى والنويرى ، فإن قصياً وآله لم يستقروا فى مكة إلا على يد قصى نفسه . وعندما كان قصى صغيراً كان يعيش فى منازل قبيلته قريش إلى الشمال من مكة مجاورين لمنازل أبناء عمومتهم العذريين القضاعيين . ونلاحظ هنا أن النص يقول : إن قُصياً خرج مع ركب حجاج قضاعة مما يدلنا على أن الصلة كانت وثيقة بين فروع قريش التى انتسب إليها قصى وفروع قضاعة .

وندع هذه الأقاصيص كلها لنقول : إن قُصيَّ بن كلاب وُلِد ونشأ فى المنازل التى وصل إليها فرع كنانة الذى أصبح يسمى قريشاً فى رحلته الطويلة من بلاد قضاعة جنوبى الشام إلى الحجاز . وكانت منازل قريش هذه وهى بطون كعب بن لؤى وعامر ابن لؤى قد حالفت بعض بطون بنى عُذرة من قضاعة مثل ضنَّة قبيلة أخيه لأمه حرام ابن ربيعة بن ضنة ، وتمكن الاثنان من إخراج بعض بطون قضاعة من منازلها ليتوسعا فيها ، وفى هذا الوقت انفصل قصى بن كلاب بقومه قريش عن كنانة وتوسع كذلك فى أراضى بنى عبد مناة بن كنانة ، واقترب بقومه من مكة .

## الصّراع بَين قصَى وَخُزاعة :

فى ذلك الحين ، كانت خزاعة سيدة مكة ، وقد سبق أن ذكرنا أن الخزاعيين تفرعوا فيما يقول الرواة عن أزد شنؤة أو أزد السَّراة ، وأن أصلهم من اليمن ، وقد رأينا فى الفقرة التى أدرناها على خزاعة أننا لا نستطيع أن نقطع بهذا الأصل اليمنى لخزاعة ولا نستطيع أن ننفيه أيضاً . والذى يهمنا على أى حال هنا ليس أصل خزاعة وإنما هو أمر سيطرتها على مكة ، فقد غلبت الجرهميين عليها وأخرجتهم منها . وسواء أكان استيلاء خزاعة على مكة قد تم بعد حرب أم تم سلماً باتفاق الحيين فإن النصوص تذكر أن رئيس خزاعة وهو ربيعة بن حارثة تزوج فُهيرة بنت الحارث بن مضاض

(١) النويرى : نهاية الأرب ١٦/ ٢١ .

الجرهمى. وأنجب منها ولداً يسمى عمرو بن ربيعة وهو لُحَى بن قمعة بن مضر بن نزار على رأى أو ابن حارثة بن عمرو مزيقياء على رأى ثان أو عامر بن قمعة على رأى ثالث[1]، وكان ذلك قبل دخول خزاعة مكة وقد أصبح لعمرو بن عامر بن ربيعة (أى لُحَى) الحق فى أن يرث مفاتيح الكعبة من بيت الحارث بن مضاض الجرهمى، ويبدو أن الحارث هذا لم ينجب من الأولاد إلا فُهيرة هذه، وإلا فكيف صار إلى زوجها مفتاح الكعبة ؟

وتقول النصوص : إن جُرْهم كانت قد طغت وبغت . فأبادها الله سبحانه . وهذا طبعاً قصص فإن الله لا يعذب قوماً أو يبيدهم بآثامهم ما لم يبعث رسولاً، وذلك بنص القرآن ولم نسمع عن رسول أرسل إلى جُرْهم فعصَتْه فحَقَّ عليها العذاب، ولكن الحقيقة المنطقية التى يقبلها المؤرخ هى أن الخزاعيين قضوا على الجرهميين بعد أن انتزعوا منهم مكة . ولا نستطيع القول إن جرهم بادت تماماً كما يقول الرواة، إنما المعقول أنها غُلبت على أمرها وحلَّتْ محلها خزاعة، وذابت بقايا الجُرهميين فى الغالبين من خزاعة وأحلافهم، وليس من الصواب أن نركز على أهمية مفتاح الكعبة وسدانتها من الآن ؛ لأن الحقيقة أن أهمية الكعبة وتنظيم العبادات حولها والحج المنظم إليها كل ذلك تم على يد قصى بن كلاب نفسه وخلفائه حتى عبد المطلب بن هاشم كما سنرى. والغالب أن الكعبة كانت إذ ذاك بناء غير مسقوف يحيط بالحجر الأسود . وكان بعض العرب يحجون إلى الكعبة وهى فى صورتها هذه، ومن استولى على مكة كان عليه أن يُعنى ببكة وهى الموضع الذى تقوم الكعبة والحجر الأسود فى وسطه، وسنتحدث عن الكعبة والحجر الأسود فيما بعد.

وهناك رواية يرويها الزبير بن بكار تقول : إن ولاية البيت قبل خزاعة كانت لمضر ابن إياد . والزبير بن بكار من القائلين بأن خزاعة ترجع فى نسبها إلى إياد بن مضر عن طريق عك بن معد بن عدنان . وهذه الرواية تقول إن أصحاب مكة الأولين كانوا من إياد بن نزار بن معد بن عدنان . ثم نازع إياداً مضر ابن أخيه نزار وغُلِبت إياد، ورضيت إياد أن تخرج من مكة شريطة أن نساء مضر المتزوجات من إياديين لهن الحق

(١) انظر جدول أنساب خزاعة والفقرة التى أدرناها على خزاعة فى الفصل الأول.

فى أن يلحقن بمضر إذا أردن ، ومن بين المضريات اللائى عُدن لمضر امرأة من خزاعة تسمى قُدامة وكانت إياد قبل مغادرتها مكة قد دفنت الحجر الأسود فى موضع أَخْفَتْه عن الناس قبل رحيلها لأنها لم تستطع حمله معها وكانت قُدامة الخزاعية تعرف موضع الحجر ، فأبلغت به قومها وقالت لهم : قولوا لمضر إننا ندلهم على موضع الحجر إذا هم تركوا لنا - أى للخزاعيين - سدانة البيت ووافق المضريون ، وهكذا احتفظت خزاعة بسدانة البيت حتى دخول قصى مكة [1]. وهناك رواية ثالثة تقول : إن الذين أخرجوا خزاعة من مكة كانوا بنى عبد مناة بن كنانة وبنى غُبشان الخزاعيين .

## قصَى يَستولى عَلى مكّة :

وصل قصى بقومه قريش إذن إلى قرب مكة متحالفاً مع بعض بطون بنى عذرة القضاعيين ومعادياً لبنى عبد مناة بن كنانة ، وكان قُصى رجلاً طموحاً تنبه إلى أهمية مكة والحرم فيها ، فاستقر رأيه على أن ينتزع مكة وبكة والبيت والحِجْر من خزاعة . وتذهب النصوص إلى أن خزاعة هى التى أفسدت ملة إبراهيم وأدخلت عبادة الأوثان إلى مكة ، ويقولون : إن عمرو بن ربيعة الخزاعى وهو لُحَى ، هو الذى أتى بِهُبَل ووضعه فى الكعبة . ولكن هناك كذلك من يقولون إن الذى أتى بِهبل كان خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وربما كانت هذه الرواية الأخيرة أقرب إلى القبول . لأن هُبَل إله أصله فينيقى (إلهُ بعل) وما دامت كنانة قد أتت من الشام فى جملة من أتى من أولاد مَعَد بن عدنان فتكون هى التى أتت معها بهذا المعبود الوثنى . ويؤيد ذلك أن ابن الكلبى يقول : إن هُبَلاً كان يسمى هبل خزيمة ، أما عمرو بن عامر بن ربيعة الخزاعى وهو لُحَى فالغالب أنه أتى من الجنوب ، ربما من اليمن أو من داخل الجزيرة حيث لا وجود لإله اسمه منسوب إلى بعل الفينيقى.

وتمكَّن قصى بمن اجتمع له من قريش وهم أبناء كعب وعامر بن لؤى بن غالب

(١) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام جـ ٢ / ص ٢٦ . وما يليها ؛ وتاريخ اليعقوبى ١/ ٢٣٨ .
- محمد بن حبيب النسابة ، المنمق فى تاريخ قريش بتحقيق : خورشيد أحمد فاروق - حيدر أباد الدكن ١٩٦٤ ص ٣٤٤.
- القضاعى ، سِمْط النجوم العوالى . القاهرة ١٣٨٠ هـ ، جـ ١/ ١٨٣ .

ومن انضم إليه من قوم أخيه رزاح بن ربيعة العذرى من احتلال مكة وإخراج خزاعة منها ، ودخلت بطون كعب وعامر مكة واستقرت بداخلها أى ببطائحها . فسموا الأبطحيون ، وانضم إليهم من حالفهم ودخل معهم من بنى عذرة القضاعيين . وبطون كعب وعامر بن لؤى كانت إذ ذاك كثيرة ، فهى تشمل بنى مرة وبنى هُصَيص وبنى عَدى أبناء كعب بن لؤى ، وبنى كلاب بن مرة (رهط قصى) بنى سُرير وبنى القلمس وبنى تيم بن مرة وبنى يقظة بن مرة وهم مخزوم.

ويضاف إليهم بنو زهرة بن كلاب أبناء عم قصى بن كلاب. وأراد قصى أن يُكَثِّر جَمْعه فاستدعى إلى مكة بنى فهر بن مالك بن النضر ، وهم فروع فهر بن مالك بن النضر التى احتفظت باسم فهر ، وهم :

بنو الحارث وبنو محارب بن فهر وفروعهم .

وبنو محارب وبنو الحارث هم أبناء فهر بن مالك بن النضر.

وبنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم ، وبنو خزيمة وبنو سعد وهم بُنانة ، وبنو الحارث بن لؤى .

وهؤلاء هم قريش الظواهر الذين يطلق عليهم فى مجموعهم اسم فهر.

وقد نزل هؤلاء حول مكة وظلوا بدواً فى مجموعهم وإن كانوا حلفاء لقريش وجزءاً منها ، فالفهريون جميعاً قرشيون ، ولكن القرشيين ليسوا فهريين إلاَّ من ناحية انحدارهم من فهر بن مالك. ولكن هذا الفريق من بنى النضر بن خزيمة بدأ انفصاله بنسبه وتسميته بقريش من أيام النضر بنفسه ، وإن كان الانفصال قد حدث فى أيام فهر بن مالك. ولزم اسم قريش لؤى بن غالب وخاصة فَرْعَاه كعب وعامر.

ويبدو أن الحرب بين قصى ومن معه من قريش ، ومن بنى عُذرة القضاعيين من ناحية والخزاعيين من ناحية أخرى كانت - طويلة عنيفة ، قال اليعقوبى : فاقتتلوا قتالاً شديداً بالأبطح (أى ببطحاء مكة) حتى كثرت القتلى فى الفريقين ثم تداعوا إلى الصلح ، وأن يَحْكُم بينهم رجل من العرب فيما اختلفوا فيه ، فحكَّموا يعمر بن كعب ابن ليث بن بكر بن كنانة فقضى بينهم بأن قصياً أولى بالبيت وأمْر مكة من خزاعة ،

وأنَّ كلَّ دم أصابه قصى من خزاعة وبنى بكر موضوع يَشْدخه تحت قدميه ، وإن ما أصابت خزاعة وبنو بكر من قريش ففيه الدية ، فودوا خمساً وعشرين بَدَنة وثلاثين خرجاً[1]. وأن يُخَلُّوا ما بين قصى والبيت ومكة ، فسمى يَعْمُر الشداخ[2].

وهذا حكم فى غاية القسوة على خزاعة ، مما يدل على أنها غُلِبت فى الحرب فكان عليها أن تترك مكة وتتحمل الغُرْم كله. والغريب أن يصدر هذا الحكم من كنانى من بنى كعب بن ليث بن بكر بن خزاعة ، لأننا سنرى بعد ، أن بنى كعب كانوا من ألدِّ أعداء بنى هاشم بن عبد مناف وهم قادة قريش .

وكان قصى رجل سياسة وحرب ، فعرف بعد انتصاره كيف يستفيد منه فاحتل مكة بقومه واتخذها منزلاً وكان الخزاعيون ومَنْ قَبْلَهم لا يسكنون مكة بل يكونون فيها بالنهار فقط ، أما فى الليل فيكونون فى خيامهم . قال اليعقوبى : «ولم يكن بمكة بيت (كذا فى الأصل، والأصح: مبيت) ، وإنما كانوا يكونون بها نهاراً . فإذا أمسوا خرجوا ، فلما جمع قصى قريشاً - وكان أدهى مَنْ رُؤِى - من العرب - أنزل قريشاً الحَرم ، وجَمَعهم ليلاً ، وأصبح بهم حول الكعبة فمشت إليه أشراف كنانة وقالوا : إن هذا عظيم عند العرب ولو تركناك ما تَركتك العرب ، فقال : والله ما أَخرج منه فثبت»[3].

ومعنى هذه الرواية - إذا صدقت - أن قصياً وقومه كانوا أول من اتخذ بكة ومكة من حولها سكناً ومقاماً ، وليس ذلك بِمُستغرب لأن المكان لم يكن به من عيون الماء شىء ، وقُصى كما سنرى أوتى مَلَكة التعرُّف على مواقع الآبار ، وهى ملكة توجد فى بعض الناس ، وخاصة أهل المناطق الجافة . وسنرى أن قصياً كشف مواقع آبار فى موضع مكة ، ولكن حفيده عبد المطلب سيكون أكبر منه ملكة فى هذا الشأن فيكشف موقع زمزم وغيرها ، وجدير بالذكر هنا أن التعرف على مواضع الماء كان من الصفات التى تؤهل الرجل ليسود قومه إذا كان من طلاب السيادة والرياسة .

---

(١) فى الأصل : حرجاً وهو تصحيف والأصح : خرج كما أثبتناه ويراد به وعاء يوضع فيه الطعام.
(٢) اليعقوبى : تاريخ ١/ ٢٣٨.
(٣) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٣٨ - ٢٣٩.

ثم يقول اليعقوبى - ونحن نتابع هنا روايته لأنها مختصرة جامعة للكثير مما يتفرق فى المطولات - : « وحضر الحج ، فقال لقريش : لقد حضر الحج ، وقد سَمِعَت العرب ما صنعتم وهم لكم مُعظِّمون ولا أعلم مَكرَمة عند العرب أعظم من الطعام فليُخرِج كل رجل من ماله خرجاً ، ففعلوا ، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً . فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة[1] جَزوراً ، ونحر بمكة ، وجعل حظيرة ، فجعل فيها الطعام من الخبز واللحم وسقى الماء واللبن ، وغدا على البيت فجعل له مفتاحاً وحَجَبه وحال بين خزاعة وبينه ، فثبت البيت فى يد قصى ثم بنى داره بمكة ، وهى أول دار بُنيت بمكة ، وهى دار الندوة »[2].

وهذه العبارة حافلة بالمعانى ، وهى تصور لنا الخطوات الكبيرة الحاسمة التى قام بها هذا الرجل الطموح البعيد النظر لبناء مجد قريش وعمران مكة ، فقد كان موضع مكة غير مسكون أو مسكوناً بقليل من الناس ، فعمَّره قصى بقومه ولا شك فى أنه كان هناك بعض السكان فى الموضع ، ولكن قصة هاجر بعد ميلاد ابنها إسماعيل هناك تدل على أن الموضع كان شبه مهجور ، وأن الناس كانوا لا يُلمون به إلاّ نهاراً للتبرك بالحجر الأسود ، وكانوا لا يلمون به كل يوم بل فى بعض الأيام بدليل أن هاجر عندما سعت بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء لابنها إسماعيل لم تجد إنساناً يهب لِعَوْنِها .

وفى أول الأمر كانت بئر زمزم معروفة ، ولكننا سنرى فى تاريخ عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى أن الجرهميين طَمُوا البئر قبل خروجهم . ويُفهم من قولهم أن قصياً أطعم الطعام وسقى الماء للحجاج أنه وجد مواضع للآبار. وكانت فكرته فى تقديم الطعام للحاج فكرة ذكية اجتذبت الناس للحج إلى البيت ببكة ومكة .

وسنرى بعد قليل أن حاج البيت عندما يَكْثرون سيقوم قصى بهدم بنائه القديم وبناء مبنى جديد . وعندما تمكن قصى من مكة حال بين خزاعة ودخولها إلا بإذنه وإذن قريش وبنى لنفسه فيها داراً وأنشأ دار الندوة لكى يتشاور فيها مع قومه فيما

(١) المراد على كل طريق من الطرق المؤدية إلى مكة .
(٢) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٣٩ .

أهمهم من الأمور ، وسنرى عند كلامنا على الأحابيش أن عبد مناف بن قصى سيخطو خطوة أخرى كبيرة لتدعيم مركز قريش فى مكة.

ويُفهم من رواية اليعقوبى أن قصياً بعد أن تمكن من أمر مكة اتجه إلى استئلاف خزاعة التى اتخذت مساكنها شمالى مكة وأخذت تمتد على الطريق منها إلى المدينة فتزوج حُبَّى بنت حُلَيل بن حُبْشية سيد خزاعة ، فكان هذا أول الارتباط بين قريش وخزاعة بعد الذى كان بينهم من الحرب . وقبل أن يموت حُلَيِّل أقر لقصى برياسة مكة وحجابة البيت ، وحُبَّى أنجبت لقصى أبناءه الأربعة الكبار عبد مناف وعبد الدار وعبد العُزَّى وعبد قصى .

ولبعض المؤرخين رواية أخرى قصصية الطابع ، نذكرها هنا لمجرد الإحاطة بها ، لا لأننا نفضلها على الرواية التاريخية التى نُتابعها الآن . وقد أوردها اليعقوبى أيضاً وقال: إن قصياً لما تزوج حُبَّى بنت حُلَيِّل بن حُبْشية الخزاعى وولدت له أولاده الأربعة الذين ذكرناهم « دفع حُلَيِّل بن حبشية المفتاح إلى أبى غبشان وهو سليمان بن عمرو بن بوَى بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو بن عامر الخزاعى فاشتراه قُصى منه وولاية البيت بزقٍّ وقعود ( ناقة عجوز ) فقيل : أخسر ( أو أخس ) من صفقة أبى غبشان ، ووثبت خزاعة فقالت : لا نرضى بما صنع أبو غُبشان ، فوقعت بينهم الحرب ، فقال بعضهم :

أبو غُبْشانَ أظلَمُ من قُصَى  وأظلمُ مِنْ بنى فِهْرٍ خُزَاعَه
فلا تُلْحوا قُصياً فى شِرَاهُ  ولوموا شَيْخَكُم إذْ كَانَ بَاعَه[1]

ويوجز اليعقوبى بعد ذلك أهم أعمال قُصى ، وسنوجزها فيما يلى من كلامه :

١- أن قُصياً ساد مكة وحكمها وتولى أمر البطون التى أيدته وأنزلها فى بطن مكة أو بطحائها فعُرفت هذه البطون بالأبطحيين أو قريش البطاح ، وكانوا متفرقين فى رؤوس الجبال ، فقسم بطن مكة على تلك البطون أرباعاً ، ولهذا سمى قصى بالمُجَمِّع . وقريش البطاح كما قلنا هى بطون كنانة التى استمر فيها نسب قريش ومعظمها بطون كعب بن لؤى ، وأهمها هنا :

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٣٤٠ .

١- كعب بن لؤى

٢- عامر بن لؤى

٣- مرة بن كعب

٤- هُصَيْص بن كعب بفرعيهم

٥- سهم بن هُصَيْص

٦- وجمح بن هُصَيْص

٧- تَيْم بن مُرة

٨- يقظة بن مرة ، وهم مخزوم

البطون والبيوت التى انحدرت من قصى ، وهى :

٩- بنو عبد مناف بن قصى

١٠- بنو عبد الدار بن قصى

١١- بنو عبد العزى بن قصى

١٢- بنو عبد بن قصى

١٣- ثم بنو زُهرة بن قصى ومن تفرع عنهم ، وهم :

١٤- بنو عبد الحارث بن زهرة

١٥- بنو عبد مناف بن زهرة بفرعيهم : وهب بن عبد مناف بن زهرة ، ووهب بن عبد بنو مناف بن زهرة .

ومن عبد مناف بن قريش يتفرع :

١٦- بنو هاشم بن عبد مناف

١٧- بنو المطلب بن عبد مناف

١٨- بنو عبد شمس بن عبد مناف

١٩- بنو نوفل بن عبد مناف

وفى أيام قُصى اقتصرت قريش البطاح على البطون من ١ إلى ١٩ وانضمت إلى قريش البطاح بيوت بنى ضنّة من بنى عذرة ، وهم قوم حرام بن ربيعة بن ضِنّة أخى قصى لأمه .

ولكن هؤلاء ذابوا فى جماعة قريش البطاح ، ولا بد أنه اندرج فى قريش البطاح من بقى فى مكة من جُرهم ومن خزاعة ، وسنرى فيما بعد أن بقايا قوية من هؤلاء وأولئك ظلوا أقوياء فى مكة ، وسيكون لهم دور فى تاريخ قريش ومكة .

وعلى نداء قصى أقبلت بقية فروع كنانة التى انحدرت عن فهر وظلت تحمل النسبة الفهرية وهؤلاء هم :

١- بنو محارب بن فهر

٢- بنو الحارث بن فهر

٣- بنو تيم بن غالب وهو تيم الأدرم

٤- بعض بنى عامر بن لؤى

وهؤلاء هم قريش الظواهر ، وقد ظلوا بدواً فى حين أن قريش البطاح أصبحوا أنصاف بدو أو أنصاف حضر Semi - Sedentaries مع الزمن .

٢- أن قُصياً بعد أن استقر بقومه من قريش البطاح ببطن مكة . بنى لنفسه فى بطن مكة بيتاً وتبعه بقية بيوت قريش البطاح فبنوا البيوت ، فانتهى بذلك عصر البداوة فى تاريخهم .

وكان بطن مكة كثير الشجر القصير مثل العِضَاه والطّرفاء والإذخر ، وكان الناس يتحاشون قطعه ، فبدأ قُصى فقطع الشجر بيده ، وتبعه الناس فاتسع العمران بمكة . قال اليعقوبى : وكانت قريش قبلُ متفرقةَ الدار قليلةَ العز ذليلَة البقاع ، حتى جمع الله ألفتها وأكرم دارها وأعز مثواها وقسمها بين قريش .

٣ - فلما استقر السلطان لقصى فى مكة ، واستقامت له الأمور ونفى خزاعة ، هدم البيت ، ثم بناه بنياناً لم يبنه أحد قبله . وكان طول جدرانه تسعة أذرع ، فجعله ثمانية عشر ذراعاً ، وسَقفها بخشب الدَّوم وجريد النخل .

٤ - وبنى دار الندوة . وكان لا ينكِح رجل من قريش ولا يتشاورون فى أمر ، ولا يعقدون لِواء للحرب ، ولا يُعَزِّرون غلاماً إلا فى دار الندوة.

٥ - وكانت قريش فى حياته وبعد وفاته ، يرون أمره كالدين المتبع.

٦ - وكان أول من حفر بمكة بعد إسماعيل بن إبراهيم ، فحُفر «العجول» فى أيام حياته وبعد وفاته ، ويقال : إنها فى دار أم هانىء بنت أبى طالب.

٧ - وكان قصى أول من سمى الدابة الفرس ، وكانت له دابة يقال لها العقاب بالسوداء.

٨ - وكان لقصى من الولد :

عبد مناف ، وكان يُدْعى القَمَر أو هو السيد الفهر . واسمه المغيرة .

وعبد الدار

وعبد العُزَّى

وعبد قُصَى

ويقال : إن قصياً قال : سَمَّيْتُ اثنين بإلهى ، وآخر بدارى ، وآخر بنفسى.

٩ - وقسم قصى بين ولده :

فجعل السقاية والرئاسة لعبد مناف

والدار لعبد الدار

والرِّفادة لعبد العُزَّى

وحافتى الوادى لعبد قصى

١٠ - وقال قصى لولده : من عظَّم لئيماً شاركه فى لؤمه ، ومن استحسن مستقبحاً شركه فيه ، ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه ، فالدواء يحسم الداء .

١١ - ومات قصى فدُفِن بالحَجُون [١].

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٤٠ - ٢٤١.
وانظر نص الطبرى : ٢ / ٢٥٤ وما يليها .

وقد أتيت هنا برواية اليعقوبى عن أعمال قصى ، لأنها تجمع أهم أعماله فى إيجاز وسأضيف عند دراسة هذا النص أهم ما نجد فى مراجعنا الأخرى.

والحق أن الأعمال التى قام بها قُصى هى الأساس الذى قام عليه مجد قريش ومكة بعد ذلك ، فقد كان قائداً عسكرياً وسياسياً ومفكراً بعيد الغور، وكان إلى جانب ذلك يتميز بميزة اكتشاف مواضع الآبار ، وكان رجل تنظيم وإدارة.

وقد أشرنا إلى أن قُصَياً استعان ببعض بطون قضاعة ، وخاصة من بنى عذرة على ما طلب من الاستيلاء على مكة ، والطبرى يؤيد ذلك ولكنه يقول هنا : إن قصياً عندما أراد دخول مكة دخلها ببنى النضر جميعاً وأحياء من قضاعة (هم من بنى عذرة) والذى نعرفه أن الذين دخلوا مع قصى كانوا القرشيين من بنى النضر ، أما الفهريون فقد أتوا بعد ذلك وأصبحوا قريش الظواهر . ويكرر الطبرى حكاية بيع أبى غبشان لمفتاح الكعبة وهو سليم بن عمرو بن بُوى بن ملكان بن أفصى بن عامر ابن أفصى بن قمعة بن إلياس بن مضر . وسنرى فى كلامنا على خزاعة أن أبا غبشان خزاعى ، فالقول بأنه من بنى أفصى ربط مفتعل لخزاعة إلى شجرة نسب إلياس بن مضر ، وهى الشجرة التى انحدرت منها قريش . والحقيقة أن خزاعة مركبة الأصل كما رأينا ، وعامة النسَّابين يجعلونها من اليمن ، وواضح أن حكاية بيع أبى غبشان مفتاح البيت بزقّ خمر وقَعُود ، رواية فيها إزراء بخزاعة وإظهار لامتياز قريش عليها . ويردد الطبرى ذلك البيت الذى نجده فى كل المراجع فى تسمية قصى بالمُجَمّع :

أبوكُم قُصَى كَانَ يُدْعى مُجَمَّعا  به جمعَ اللهُ القبائلَ مِنْ فِهْر

والمراد بفهر هنا بقية بطون قريش من غير أبناء لؤى بن غالب .

ويذكر الطبرى هنا حكاية قبيلة صوفة التى كانت تشرف على مناسك الحج وتسىء معاملة الحجيج . وحكاية صوفة هذه كلها أسطورة ، لأن صوفة فيما يقول النسابة هم بنو مُرّ بن أُد بن طابخة ، وطابخة هو مر بن أُد بن إلياس بن مضر ، ومن بنى مر بن أُد قبائل كثيرة منها تميم ، ولا ندرى ما الذى أتى بطابخة أى مر بن أُد بن إلياس بن مضر هنا ، مع أن المضرية لم يعرفوا مكة إلا على يد قصى - من أبناء النضر

الذى نتحدث عنه . ومن الغريب أن كل مراجعنا تقبل هذه الأسطورة ، بل إن ابن حزم يضيف هنا : « وأما صوفة فإنهم كانوا يجيزون بالحاج ، لا يجوز أحد حتى يجوز والى ذلك منهم ثم انقرضوا عن آخرهم فى الجاهلية فورث ذلك آلُ صفوان بن شجنة من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم »[١] .

وهذه حكاية مخترعة أيضاً ، ويطول بنا الأمر لو مضينا نناقش أقوال النسابة ، ومن المؤكد أن مناسك الحج لم تنتظم على النحو الذى عرفه الجاهليون إلا على أيدى القرشيين ابتداء من قصى . بل إن عبد المطلب هو الذى سيحدد بصفة دقيقة مناسك الحج فى الجاهلية كما سنرى[٢] ، أما قبل قصى فلم يكن لأى قرشى أو كنانى أو عدنانى أىُّ دور فى تاريخ الحج.

ويقول الطبرى فى روايته : إن قصياً وأحلافه من كنانة وقضاعة تخيروا وقت الحج للهجوم ، فعندما اشتد تعسف رجال قبيلة صوفة فى تقديم أنفسهم على الناس فى النفر وبلغ ضيق الناس مداه انقض قصى ومن معه وغلب صوفة على المناسك وانتزعها لنفسه وعندما رأت خزاعة وبنو بكر بن عبد مناة (من كنانة) توجسوا أن يحول بينهم وبين الكعبة ، فبادؤوه الحرب التى انتهت بتحكيم يعمر بن عوف «من بنى كعب بن ليث بن بكر بن عبد مناة» الذى عُرِف بالشداخ ، فحكم لقصى على ما رويناه [٣].

بذلك أصبح قصى سيد مكة ودخل البلد فى ولاية قريش ، وكان قصى رجلاً ذكياً فاتجه بعد نصره إلى استئلاف القبائل الضاربة حول مكة . قال ابن إسحاق برواية الطبرى «فأقام قصى بمكة على شرفه ومنزلته فى قومه ، لا يُنازَع فى شىء من أمر مكة إلا أنه قد أقر للعرب فى شأن حِجِّهم ما كانوا عليه ، وذلك لأنه كان يراه ديناً على نفسه لا ينبغى تغييره .

---

(١) ابن حزم ، الجمهرة : ٢٠٦ .

(٢) J. Wellhausen, Reste arabische Heidentums, p. 68. Snouck Hurgronje, Net mekkanische Feest, Leiden 1880.

(٣) الطبرى ، تاريخ : ٢ / ٢٥٨.

- وكانت صوفة على ما كانت عليه حتى انقرضت صوفة ، فصار ذلك من أمرهم إلى صفوان بن الحارث بن شحنة وراثةً .

- وكانت عدوان على ما كانت عليه ( وعدوان من قيس بن عيلان ) .

- وكانت النسأة من بنى مالك بن كنانة على ما كانوا عليه.

- ومرة بن عوف على ما كانوا عليه .

- فلم يزالوا على ذلك حتى قام الإسلام ، فهدم الله به ذلك كله» [1].

ثم يذكر ابن إسحاق إنشاء قصى لدار الندوة ، ومن سياق الكلام نفهم أن دار الندوة والمشاركة فيها لم تكن قاصرة على أنصار قصى من القرشيين والقضاعيين وبنى كنانة ، بل اشترك فيها الجميع ، فكان شيوخ قبائل الموضع جميعاً يلتقون فيها للتشاور واتخاذ ما يرون من الرأى.

ويحكى ابن إسحاق عند الطبرى أيضاً كيف أن قصياً عندما كبرت سِنُّه رأى أن بِكْرَ ولده وهو عبد الدار لا يصلح لوراثة مركزه وأنه كان يفضل عليه ابنه عبد مناف فاختاره لوراثته ولكنه عوَّض عبد الدار خيراً فأعطاه مظاهر الديانة فجعل إليه مفتاح الكعبة وجعل له اللواء فى الحرب والسقاية والرفادة ، وجعله رئيس دار الندوة . ومعنى ذلك أن عبد الدار بن قصى أصبح بعد قصى شيخاً شرفياً للجماعة فى حين أن السلطان الفعلى صار لعبد مناف ، وهذا أيضاً دليل على ذكاء قصى وبُعْد نظره السياسى.

وإذن : فهذا الرجل قصى بن كلاب هو الذى وضع أساس نوة قريش ومكانتها ، فهو الذى أقرها فى مكة ونقلها من البداوة إلى الحضارة والاستقرار ، ووضع لها من عنده نظاماً شورياً فيه إنصاف للقبائل جميعاً ، وهو كذلك صاحب الفضل فى تنظيم أمور مكة وتقسيمها رباعاً بين بيوت أبنائه وحلفائه ، ومن أكبر فضائله تلك الشورية التى سار عليها وانفرد بها من بين رؤساء العرب قبل الإسلام وتميزت بها قريش عن الكثير من زعماء العرب بعد الإسلام.

(١) الطبرى ، تاريخ : ٢ / ٢٥٩.

وسنرى أن كل عمل من أعمال قصى سيتممه ويكمله واحد من خلفائه ، وسنرى فى النهاية أن قريشاً أقام بناءها قبل رسول الله ﷺ أربعة رجال : رجل سياسة وحرب وتنظيم وهو قصى ، ورجل سياسة وتنظيم وسلام وهو عبد مناف ، ورجل تجارة ومال هو هاشم بن عبد مناف ، ورجل دين واتجاه روحى غالب هو عبد المطلب بن هاشم.

## عَبد مناف بن قصَىّ

### إكمال البنَاء السّياسى والاجتماعى لقريش

بعد أن توفى قصى خلفه فى الرياسة ابنه عبد مناف ، فسار فى طريقه وأكمل ما استطاع من عمله السياسى ، وكان عبد مناف رجل سياسة وتعمير ، فقد انتهت مرحلة الحرب وآن أن يُستكمل العمل عن طريق السياسة والاستئلاف . قال ابن سعد فى طبقاته : «أخبرنا محمد بن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه قال : لما هلك قصى بن كلاب قام عبد مناف بن قصى على أمر قصى بعده ، وأمر قريش إليه واختط بمكة رباعاً بعد الذى كان قصى قطع لقومه »[1].

ونقرأ عند ابن هشام : « قال ابن إسحاق : ثم إن قصى بن كلاب هلك ، فأقام أمره فى قومه وفى غيرهم بنوه من بعده ، فاختطوا بمكة رباعاً - بعد الذى كان قطع لقومه بها ، فكانوا يُقَطّعونها فى غيرهم من حلفائهم ويبيعونها ، فأقامت على ذلك قريش معهم ، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع ، ثم إن بنى عبد مناف بن قصى : عبد شمس وهاشماً والمطلب ونوفلاً أجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قُصى مما كان قصى جعل إلى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، ورأوا أنهم أوْلَى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم فى قومهم ، فتفرقت عند ذلك قريش، فكانت طائفة مع بنى عبد مناف على رأيهم ، يرون أنهم أحق به من بنى عبد الدار لمكانتهم من قومهم . وكانت طائفة مع بنى عبد الدار ، يرون ألا يُنزع منهم ما كان قصى جعل إليهم»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد ، القسم الاول ١ / ٤٢ .

(٢) ابن هشام ، السيرة : ١ / ١٣٨ .

ويبدو أن قول محمد بن السائب الكلبى أن عبد مناف تولى أمر قريش ومكة بعد أبيه قصى أصح مما يقوله ابن إسحاق من أن أبناء قصى الأربعة تولوا أمر مكة معاً ؛ لأن اليعقوبى يقول إن عبد مناف كان يلقب بالقمر، وهو السيد النهر : وهذه تسميات تدل على أنه كان أعلى من بقية إخوته مكانة . ويؤيد ذلك قول اليعقوبى بعد ذلك: وقَسَّم قصى بين ولده فجعل الرفادة والرياسة (كذا فى الأصل المطبوع وهو تحريف إذ المراد السدانة) والدار لعبد الدار وحافتى الوادى لعبد قصى »[1] وهذه العبارة الأخيرة غير مفهومة فنحن لا نفهم المراد (بحافتى الوادى).

ثم يورد اليعقوبى بعد ذلك خبراً طويلاً نفهم منه كيف أن عبد مناف صار بالفعل رئيس مكة بعد أبيه قصى واجتهد فى إكمال عمله السياسى . قال : «ومات قصى فدفن بالحجون ، ورأس عبد مناف بن قصى، وجَلَّ قدرُه ، وعَظُم شرفُه . ولما كبر أمر عبد مناف ابنه جاءته خزاعة وبنو الحارث بن عبد مناة (من كنانة) يسألونه الحلف ليعزوا به فعقد معهم الحلف الذى يقال له حلف الأحابيش . وكان مُدبر بنى كنانة الذى سأل عبد مناف عقد الحلف عمرو بن هَلَل بن معيص بن عامر. وكان تحالف الأحابيش على الركن : يقوم رجل من قريش وآخر من الأحابيش، فيضعان أيديهما على الركن، فيحلفان بالله القاتل[2] وحرمة هذا البيت والمقام والركن والشهر الحرام على النصر على الخلق جميعاً ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها[3] ، أو على التعاقد وعلى التعاون على كل من كادهم من الناس جميعاً ما بلَّ بحر صوفه وما قام حرى وتبير ، وما طلعت شمس من مشرقها إلى يوم القيامة[4] . فسمى حلف الأحابيش. فولد عبد مناف بن قصى هاشماً واسمه عمرو .. وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو وحيَّة وتماضِر وأم الأخثم وأم سفيان وهالة وقلاية ، وأمهم جميعاً (إلا نوفلاً وأبا عمرو) عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سليم، فولدت له هؤلاء ، وهى التى جَرَّت حِلف الأحابيش »[5].

---

(١) اليعقوبى : ١ / ٢٤١ .

(٢) كذا فى الأصل المطبوع ، وهو وصف غير مألوف أو مقبول حتى للآلهة فى الجاهلية .

(٣) هنا معنى إسلامى لم يعرفه الجاهليون ونظن أنه مدسوس.

(٤) اليعقوبى : ١/ ٢٤١.

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ١ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

وهذه صورة طريفة عن كيفية عقد الأحلاف بين العرب فى الجاهلية . وعن الأحابيش نقرأ عند المصعب الزبيرى فى نسب قريش : «فأما الهُون بن خُزيمة فهم عضل وديش والقارة ، بنو يَثيَع بن الهُون : وهم وبطنان من خزاعة يقال لهما الحيا والمصطلق حلفاء لبنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهم كلهم يقال لهم الأحابيش، أحابيش قريش لأن قريشاً حالفت بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة على بكر بن عبد مناة (بن كنانة) ، فهم وأحلافهم حلفاء قريش ، وإياهم عَنِى كعب بن مالك الأنصارى فى قوله فى وقعة أُحُد :

وجِئْنَا إلى مَوْجٍ من البَحْرِ وَسَطه أَحَابِيش منهُمْ حَاسِر ومقَنَّع [1]

وإذن : فيكون تكوين الأحابيش كما يلى :

من كنانة : عضل وديش والقارة من بنى الهون بن خزيمة وبنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة.

من خزاعة : الحيا والمصطلق حلفاء بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة .

وذلك هو بيان موضوع الأحابيش الذى أطال الكلام فيه المستشرق هنرى لامانس فى إحدى دراساته المقذعة المغرضة عن الإسلام والمسلمين ، فقد زعم هذا الرجل أن الأحابيش هم قوة من الأحباش أو السود كانت قريش تستعين بهم فى حربها لعجزها عن القتال وقد اسْحَنْفر[2] هذا الرجل الحاقد وبحث وفحص وخرج برأى دحضه بعد ذلك علماء كثيرون ما بين مسلمين وغير مسلمين . فالأحابيش ليسوا أحباشاً ، وإنما هم بعض قبائل من العرب ومعظمهم من كنانة وخزاعة انضم بعضها إلى بعض وتحالفت للدفاع عن نفسها ، وقد تنضم إليها بطون من بدو تهامة ممن انفصلوا عن قبائلهم ، وهذا تفسير وَصْفهم بأنهم « لا نسب لهم » .

وعندما استقر قُصى بمكة وأقام نظامه على ما بيَّنا ، تمكن ابنه عبد مناف من أن يعقد حلفاً مع أولئك الأحابيش الذين أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم تحبَّش بعضهم

(١) مصعب الزبيرى ، نسب قريش .

(٢) يقال : اسحنفر فى خطبته إذا مضى واتسع فى كلامه .

إلى بعض ، أى تجمعوا ، والأحبوش أو الأحبوشة هى الجماعة من البدو ينضم بعضهم إلى بعض ويكونون قوة واحدة للأمن والإغارة والتعاون ، ولا علاقة لهم بالأحباش أو الحبش أو السود أو الجند المرتزقة[1].

وقد استمر حلف الأحابيش مع قريش - فصار يطلق عليهم أحابيش قريش . وتقرأ فى أخبار الخندق مثلاً أن قريشاً أقبلت مع أحابيشها . وهذا لا يمنع من القول بأن مكة كان فيها أحباش أو حبشة أى سود يفدون إليها من أفريقية ويعيشون فيها ويخدمون أهلها فى أغراض الحرب والسلم . وقد اشتهروا بإجادة الرمى بالقناة أى الحربة الطويلة .

وقد كانت جماعة الأحابيش مكوَّنة قائمة عندما أقام قصى نظامه فى مكة ، ولكن حلف قريش مع الأحابيش على يد عبد مناف أعطى مجموعة الأحابيش شخصية وقيمة وكياناً سياسياً ، فمن الآن فصاعداً نجد الأحابيش يُذْكرون كوحدة سياسية عسكرية قائمة بذاتها ولها رئيس يتكلم باسمها . وسيكون الأحابيش على الجملة إلى جانب قريش لأنها اجتهدت دائماً فى ربط أولئك الأشتات من القبائل البدوية الصغيرة إليها حتى لا يضطرب الأمن فى منطقة مكة ، وسيظل الأحابيش إلى جانب قريش حتى صلح الحديبية فسيكون لرئيسهم شأن فى المحادثات بين رسول الله ﷺ وأهل مكة . ثم سيدخلون فى الإسلام بعد ذلك ويكون لهم دور محمود فى تأييد أبى بكر عند الردة ، وهم مذكورون فى النصوص إلى أيام خلافة معاوية بن أبى سفيان .

ونعود إلى عبارة اليعقوبى التى نناقشها منذ حين فنستنتج منها غير ما ذكرنا ما يلى :

- إن عبد مناف ورث أباه قصياً فى الرياسة وإنه اتجه إلى إكمال عمل أبيه ، فسمح لنفر آخر من بطون قريش الظواهر وغيرها بالاستقرار فى مكة وأعطاهم أحياء من مكة لكى يكثر بهم جمعه ، ومعظم أولئك الداخلين انضم إلى بنى قُصى واندرج مع الزمن فيهم .

---

(١) عن الأحابيش والمناقشة فى أمرهم انظر :

J. Wellhausen , Makka vor Mohammad

H. Lammens. Les Ahabish et L'organisation militaire de La Mecque au siècle de l'hégire . Journal Asiatique, 1916 . pp.425 - 482.

W.Montgameny Watt, Muhammad at Mekka , Excursus A . pp. 154-157 .

- واتجه بعد ذلك إلى استئلاف خزاعة بعد ما كان من حرب قصى معها وإخراجه إياها من مكة ، فاستعاد عبد مناف صداقتها وعقد معها ومع بعض بطون عبد مناة ابن كنانة - من فرع عمرو بن عبد مناة - حلفاً على التعاهد والتظاهر ، وهذا هو حلف الأحابيش .

- واستعان عبد مناف فى ذلك بأمه عاتكة بنت مرة ، وهى من بنى سُليم بن منصور ، مما نستنتج معه أن بعض بنى سليم بن منصور دخلوا فى حلف قريش .

- ووصف لنا اليعقوبى كيف كان العرب فى الجاهلية يعقدون أحلافهم عند الكعبة ، وقد سبق أن علقنا على ذلك .

وخلاصة ذلك أن عبد مناف كان رجل سياسة ، فعرف كيف يستألف من كان أبوه قد عاداه من القبائل ويكسب ودها وخاصة خزاعة وبعض بنى عبد مناة بن كنانة . وعندما مات عبد مناف وخلفه ابنه هاشم كان مركز قريش قد استقر فى مكة وما حولها وأصبحت صاحبة السيادة والرياسة فى تهامة . ولهذا نَعُدُّ عبد مناف من مؤسسى مجد قريش .

## هَاشم بن عَبد مناف وَبناء التجَارة المكيّة :

وننتقل الآن إلى الرجل الثالث من بناة مجد قريش وقوتها وهو هاشم بن عبد مناف. ونلاحظ أننا نتابع الآن تطور قبيلة واحدة هى قريش لا كما كان الحال قبلاً عندما كنا نؤرخ للؤى بن غالب أو لغالب بن فهر ، فهناك الأسماء تشير إلى مجموعات قبلية وتفرعاتها والأسماء التى لدينا هى أسماء زعماء هذه المجموعات فنحن عندما نتكلم عن فهر مثلاً كنا نتكلم عن قبيل قديم لا نعرف زمانه على وجه التحديد ، ولهذا فنحن لا نعرف كم من الزمن استلزم بناء مجموعة بنى فهر واستقلالها بنفسها عن بقية كنانة وانفرادها باسم قريش تحت لواء غالب بن فهر ومن انضم إليه من الوحدات القبلية الكنانية مثل : الحارث بن فهر ، ومُحارب بن فهر ، وانفصالها عن بقية فروع مالك بن النضر التى انفردت باسم فهر .

وفى كلام اليعقوبى عن هاشم بن عبد مناف عبارة يمر بها القارىء دون أن يتفطن

إلى معناها ، ولكن قراءة ثانية لها ربما أعطتنا واحداً من الأسباب التى أدت إلى عقد حلف الأحابيش ، قال فى ذكر أولاد عبد مناف : فولد عبد مناف بن قصى هاشماً .... وعبد شمس والمطلب ونوفلاً وأبا عمرو وحَيَّة وتُماضر وأم الأخشم وأم سفيان وهالة وقلابة ، وأمهم جميعاً - إلا نوفلاً وأبا عمرو - عاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج بن ذكوان بن ثعلبة بن بهثة بن سُلَيم ، فولدت له هؤلاء ، وهى التى جَرَّت حلف الأحابيش»[1] .

ومن أسف أن النسخة المطبوعة التى نعتمد عليها تجعل بعد ذلك بياضاً فى الأصل، ولو أن الكلام اكتمل لعرفنا شيئاً جديداً عن ذلك الحلف ، ولكن العبارة التى أوردناها ذات معنى بعيد إذا صح تأويلنا لها : فإن عاتكة المذكورة هنا تنتسب إلى بنى سُلَيم بن منصور من أكبر مجموعات قيس عيلان مضر ، وكانت قبائل قيس عيلان قد بدأت تنفس على بنى عمومتها المنحدرة من إلياس بن مضر ما وصلت إليه من قوة واستقرار فى الحجاز بعد استيلاء قصى على مكة ، فبدأت بعض فروعها تتسلل إلى الحجاز من الشرق ، وصاهر عبد مناف واحدة منها هى بنو سليم بن منصور ليكسبها إلى جانبه أو ليتقى أذاها ، ولكن بقية قبائل بدو الحجاز شعرت بالخطر وسعت لهذا إلى الارتباط بقريش فكان حلف الأحابيش وآمنت به تلك القبائل الصغيرة ، ولكن العداء والحسد بين عرب قيس عيلان على قريش ظل يتزايد حتى كان سبباً من أسباب حرب الفِجَار كما سنرى .

ولكننا الآن نخرج من عصر الأساطير والقصص الشعبى وندخل فى عصر التاريخ ونؤرخ لقبيلة واحدة هى قريش وزعماؤها وبُناة مجدها وقوتها ، وكل من سيرد ذكره من فروعها إنما هى بيوت أو عائلات لا قبائل كما يفهم البعض من النصوص ، فيقظة بن مرة وهى مجموعة مخزوم - بيت لا قبيلة ، وزُهرة بن كلاب بيت أو عائلة لا قبيلة ، وعبد شمس بن عبد مناف بيت لا قبيلة ، وكذلك هاشم بن عبد مناف ، وهاشم شخصية تاريخية محددة المعالم وكذلك عبد شمس ، وكل منهما رأس بيت أو عائلة من البيوت أو العائلات التى تكوَّنت منها قبيلة قريش التى نؤرخ لها ، ولا بد أن

(١) اليعقوبى ، تاريخ : ١/ ٢٤١ .

ننص على ذلك هنا منعاً للبس وتحاشياً للوقوع فى الخطأ فى فهم تاريخ قريش ، فلا زهرة ولا عبد مناف ولا مخزوم ولا عبد شمس كانت قبائل ، وإنما هى بيوت وعائلات من قريش . وهاشم عندما خلف عبد مناف فى رياسة قريش أصبح رئيساً لهذه البيوت كلها ، ولكن رياسته لم تكن رياسة مُلك أو سلطان أو قوة غالبة بل رياسة تفاهم وائتلاف على المعنى الخاص لرياسات القبائل كما سنحدد ذلك بتفصيل عند كلامنا على عبد المطلب بن هاشم .

ويبدو أن هاشماً لم يصل إلى رياسة قريش بعد عبد مناف دون معارضة بعض إخوته وبعض رؤساء البيوت القرشية الأخرى ، وذلك طبيعى لأن رياسات القبائل لم تكن حقاً لبيت بعينه ، ولا هى كانت تراثاً ، وإنما كان يصل إلى الرياسة من يثبت أنه أحق بها على أساس استعداده للتضحية فى سبيل القبيلة وقدرته على الوفاء بالتزامات الرياسة ومسئوليتها وينبغى أن نذكر هنا أننا نؤرخ لقبيلة لا لدولة ، فهنا مجموع قبلى لا يتميز فيه واحد على واحد إلا بالفضائل القبلية من شجاعة وكرم وعقل وبذل للمال وحكمة وتجربة ، فالرياسة هنا رياسة ترشيح وتأييد لهذا الترشيح ، فلا جيش ولا قوة عسكرية أو حق موروث يؤيد أى مرشح ، فكان الرئيس إذا مات تنافس من يرون أنفسهم جديرين بالرياسة فى إظهار فضائلهم التى أشرنا إلى بعضها ، والقبيلة فى مجموعها تؤيد ترشيح من تراه أهلاً للمسئولية ، ويكون القرار فى دار الندوة ، وليس من الضرورى هنا أن نفترض انتخاباً أو تصويتاً ، بل الذى يحدث هو أن واحداً من المرشحين أنفسهم يتفوق على أقرانه ويفوز بأكبر قدر من التأييد فى مكة كلها ، ثم يكون اجتماع رَأْى الرؤساء على الفائز فى دار الندوة ، وعلى الفائز بعد ذلك أن يستمر فى إظهار فضائله وإثبات أنه جدير بالرياسة فعلاً .

شىء من هذا حدث عندما مات عبد مناف ، إذ تطلع للرياسة عدد ممن رأوا أنفسهم أهلاً للمسئولية من رؤساء البيوت ، وهنا نجد اثنين من إخوة هاشم هما عبد شمس والمطلب يقفان مع أخيهما هاشم ويشدان من أزره فى وجه غيره من المنافسين . ومن هنا كانت رياسة هاشم قد تمت بتأييد قوى من أخويه المطلب وعبد شمس . فأما المطلب فقد وقف هو وبيته إلى جانب بيت هاشم إلى أن جاء الإسلام وبعده ، ورسول

الله ﷺ كان إذا جاء ذكر بيت المطلب شبَّك أصابعه وقال ما معناه : نحن - يقصد بنى هاشم وبنى المطلب - يد واحدة .

وأما عبد شمس فقد وقف بقوته كلها إلى جانب أخيه هاشم ، ولا صحة لما تزعمه المراجع من أن العداوة بين هاشم وعبد شمس بدأت منذ ميلادهما وصباهما ، بل قبل الميلاد ، فتذكر المراجع أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين وأنهما نزلا من بطن أمهما وأصبع أحدهما ملتصقة بجبهة الآخر أو بكعبه ، وكان لا بد من الفصل بينهما بالسيف أو السلاح . فكان هذا أول دم سال بين بنى هاشم وعبد شمس . فهذا نظر رجعى أى رجعة بشىء ظهر بعد الإسلام إلى ما قبله والتماس أصوله هناك . فالحقيقة أن العداوة بين هاشم وعبد شمس ظهرت بعض الشىء بعد بعثة محمد ﷺ ثم تأكدت فى وقعة بدر كما سنرى ؛ أما قبل ذلك فقد كان هاشم وأخواه عبد شمس والمطلب يداً واحدة. ويؤيد هذا الرأى قول الطبرى : وحُدِّثْتُ عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه قال : كان هاشم وعبد شمس - وهو أكبر ولد عبد مناف - والمطلب - وكان أصغرهم - أمهم عاتكة بنت مرة السُّلمية - ونوفل - وأمه واقدة - بنى عبد مناف - فسادوا بعد أبيهم جميعاً ، وكان يقال لهم المُجيرُون ، قال : ويُقال فيهم :

يَا أيها الرجُلُ المحوِّلُ رَحْلَهُ ألاَّ نَزَلتَ بدارِ عبدِ مَنَاف[1]

أما الذى ميَّز هاشماً وقدَّمه على إخوته للرياسة ، فكان تفطُّنه إلى أهمية الناحية التجارية بالنسبة لمكة ، وقد فَصَّل أمر ذلك نفر من مؤرخينا أوضحهم فى هذا المعنى اليعقوبى ، وسأورد هنا عبارته على تواليها لأهميتها وأقسمها إلى فقرات حتى يسهل الاستدلال بفقراتها واستخراج كل مغازيها التاريخية ، قال :

١ - وشَرُف هاشم بعد أبيه ، وجلَّ أمره ، واصطلحت قريش على أن يتولى هاشم بن عبد مناف الرئاسة والسقاية والرفادة ، فكان إذا حضر الحج قام فى قريش خطيباً فقال : يا معشر قريش ، أنتم جيران الله وأهل بيته الحرام ، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله معظِّمون حرمة بيته ، فهم أضياف الله ، وأحق الضيف بالكرامة

(١) هذا البيت هو الذى جعلنا نقرأ لفظ المجيرين الوارد فى العبارة السابقة على هذا النحو . وقد قرأها وشكلها أبو الفضل إبراهيم : المُجبِّرين ، ولا يتفق هذا مع معنى البيت .

ضيفه[1]، وقد ميزكم ( فى الأصل المطبوع خيركم ) الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُعثاً غُبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح ، وقد أعيوا ونَفِلوا وقملوا وأرملوا ، فاقروهم واغنوهم » وكانت قريش تُرافِد على ذلك .

٢- وكان هاشم يُخرج مالاً كثيراً ، ويأمر بحياض من أدم ، فتُجعل فى موضع زمزم ثم يسقى فيها من الآبار التى بمكة ، فيشرب منها الحاج ، وكان يطعمهم بمكة ومنى وعَرفة وجَمْع . وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق ويحمل لهم المياه ، حتى يتفرق الناس إلى بلادهم ، فسمى هاشماً .

٣- وكان أول من سن الرحلتين : رحلة الشتاء إلى الشام ، ورحلة الصيف إلى الحبشة، إلى النجاشى . وذلك أن تجارة قريش [كانت] لا تعدو مكة ، فكانوا فى ضيق ، حتى ركب هاشم ، فنزل ببصرى ، فكان يذبح فى كل يوم شاة ، ويضع جفنة بين يديه ، ويدعو من حواليه .

وكان من أحسن الناس وأجملهم ، فذكر لقيصر ، فأرسل إليه ، فلما رآه وسمع كلامه أعجبه ، وجعل يرسل إليه ، فقام له هاشم ، فقال له : أيها الملك : إن لى قوماً ، وهم تجار العرب ، فتكتب لهم كتاباً يؤمِّنهم ويؤمِّن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه . ففعل ذلك قيصر وانصرف هاشم ، فجعل كلما مر بحىٍّ من العرب أخذ من أشرافه الإيلاف أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة والشام ( الأصح : من مكة إلى الشام ) .

٤- وخرج[2] هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام ، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات ، ولا يلزمها لها مؤونة حتى صار إلى غزة فمات بها .

٥- ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب ، فخرج عبد شمس إلى النجاشى ملك الحبشة ، فجدد بينه وبينه العهد ، ثم انصرف ، ولم يلبث أن مات بمكة ودُفِن بالحجون .

وخرج نوفل إلى العراق ، وأخذ عهداً من كسرى ، ثم أقبل بموضع يقال له سلمان.

---

(١) يريد ضيف الله .

(٢) تركت قبل ذلك فقرة طويلة من القصص الشعبى قليلة المحصلة التاريخية .

٦- وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف[١].

فأما الفقرة الأولى من هذه العبارة ففيها إسراف فى تقدير هاشم ومبالغة فى تعظيم هيئته ، وهى مثال للنظرة الرجعية إلى التاريخ أى النظرة إلى ما مضى من الأحداث ومن الرجال على ضوء ما كان فيما بعد ، فاليعقوبى هنا يصور هاشماً على ضوء ما كان من ظهور محمد رسول الله ﷺ من أعقابه ، فهو يبالغ فى تجميله وتعظيم هيئته ، ولعله أراد بذلك أن يرضى غرور حلفاء بنى العباس - وهم هواشم - ولكننا نكتفى بخلاصتها ، وهى أن هاشماً تنبه إلى أهمية مكة ووُجود الكعبة فيها ، فحفز قومه على اجتذاب الناس إليها ، ولا يجتذب الناس فى تلك العصور شىء فى جزيرة العرب مثل الطعام والماء ، فحض قومه على بذل أقصى ما يستطيعون من الأموال وحسن اللقاء والضيافة لمن يفد على مكة من زوار الكعبة ، وليس معنى ذلك - بالضرورة - أنه فعل المكارم التى يذكرها اليعقوبى ، ولكن يكفى أن يعرف الناس أنهم إذا قدموا مكة وجدوا شيئاً من زاد وماء وقِرى حتى يتوافدوا عليها .

وقد سبقه أبوه عبد مناف وجدُّه قصى إلى ذلك ، ولكنه هو الذى وجه همه بصفة خاصة إلى اجتذاب الناس إلى مكة ، ومن الطبيعى ألا يفد الناس صفر اليدين ، بل كانت العادة أن يقبل كل وافد بما عنده من أدم أو تمر أو صوف أو ماشية أو خيل فيكون هناك تبادل وتقوم تجارة ويكون المكيون أصحاب السوق وأكبر المفيدين منه ، خاصة وأن تعظيم الكعبة كان يضفى على منطقة مكة أمناً يشجع الناس على الوفود إليها .

والفقرة الثانية تُفصِّل أمر ما كانت قريش - بتوجيه من هاشم - تقدمه للوافدين عليها ، ومن الممكن أن تكون أصناف الطعام التى يذكرها مثل الخبز واللحم والسمن والسويق وهو الدقيق تقدم لسادات العرب عند وفودهم أو حضورهم الطعام فى بيوت هاشم وغيره من القرشيين .

والفقرة الثالثة هى التى تهمنا هنا فى المكان الأول ، فهى تقول إن هاشماً اجتهد فى

(١) تاريخ اليعقوبى ١/ ٢٤٣-٢٤٤ .

توسيع نطاق تجارة مكة والوصول بها إلى الشام ، فإن التجارات كانت تقف عند مكة، وهاشم هو الذى فكر فى الوصول بها إلى الشام ، ولا بد أنه كان قد ذهب إلى بلاد الشام قبل ذلك وعرفها ، ولا بد كذلك أنه أحس أن هناك طلباً على بضائع معينة يستطيع هو وقومه أن يأتوا بها إلى بلاد الشام ، وهذه البضائع لا تقتصر على ما يخرج من الجزيرة مثل الأدم أى : الجلود . والتمور ، والصوف ؛ فإن هذه الأصناف مهما عزت فإن لها بدائل فى بلاد دولة الروم ، فلا بد ، إذن أن تكون الحاجة مست إلى أنواع من البضائع يحتاج إليها الناس فى بلاد دولتى الرومان ثم الروم ولا بد أن تأتيها من بعيد .

وهذه البضائع هى التوابل والعطور والمسك والمُر واللبان والحرير مما لا تستغنى عنها الكنائس فى طقوس العبادة ولا يستغنى عنها الملوك وسروات الناس فى حياتهم كالحرير والقطن والأحجار الكريمة والعاج وهو سن الفيل واليشب وهو المعروف باسم Jade وهو يأتى من الصين ، والمرجان والزعفران وما إلى ذلك ، وبعض هذه الأصناف توجد فى بلاد العرب نفسها - فى اليمن خاصة - مثل اللبان والمر ، ولكن الحرير والتوابل والصندل والعود والعنبر والأحجار الكريمة واليشب تأتى من الهند والصين وبحارهما ، أما العاج وبعض التوابل وريش النعام وجلود بعض الحيوانات السمكية فتأتى من بلاد آسيا وإفريقية ، وكذلك العطور والدهون وبعض أصناف الزيوت .

وكان بعض هذه الأصناف يصل إلى مكة ، والباقى يمكن جلبه إليها إذا مست إليه الحاجة وهذه الحاجة هى التى لمسها هاشم فى بلاد الشام وعرف أنه يستطيع موافاة التجار أو رجال الدولة البيزنطية فى الشام بها ، ومن ثم فطن بحسّه التجارى العملى إلى أنه يستطيع أن يسد هذه الحاجة ، ومن هنا فقد اجتهد فى مداخلة رجال الدولة وكبار التجار لكى يعرض عليهم تزويدهم بما هم بحاجة إليه من هذه البضائع ، فتكلف المظهر العظيم وجعل يذبح كل يوم شاة ويصنع طعاماً حتى يشتهر أمره ويجتذب أنظار رجال الدولة ويكسب احترامهم وثقتهم ، فإن التجارة التى كان يريد أن يعرضها غالية الثمن ، ونَقْلُها يضاعف قيمتها ، فلا بد أن يكون المتعهد بجلبها قادراً على ذلك .

ولا بد أن تكون الظروف قد واتت هاشماً أو دفعته إلى ذلك ، ومن قديم الزمان كان معظم هذه الأشياء يصل إلى بلاد الرومان ثم الروم عن طريق بلاد فارس ، إما عن طريق الطرق التجارية وسط آسيا أو عن طريق البحر وموانىء الخليج الذى كان إذ ذاك يُعرف باسم خليج فارس . وكانت الحروب بين دول الفرس والرومان ثم الروم هى السبب الأكبر فى انقطاع وصول هذه المتاجر إلى بلاد الشام ، وقد حدث هذا أثناء الحروب بين البارثيين والرومان ، ثم تجدد فى أيام الساسانيين ومن عاصرهم من قياصرة الروم البيزنطيين ، وموضع النزاع بين الأخيرين كان التنافس على سيادة بلاد أرمينية شمالى العراق ، وكانت قد دخلت المسيحية وأصبحت بذلك فى نطاق النفوذ البيزنطى ، ثم امتدت المسيحية فى شمالى الشام والعراق فزاد الاحتكاك بين الدولتين وتجددت فرص النزاع ، لأن الفرس لم يدخلوا المسيحية بل عادوها ، خاصة وقد استولى ملوك الساسانيين على أرمينية والموصل واضطهدوا المسيحيين ، وكان ذلك فى عصر الملك سابور الثانى (٣١٠-٣٧٠م) وبهرام الخامس(٤٢٠-٤٣٨م) .

ويزدجرد الثانى (٤٣٨-٤٥٧) وبلغ ذروته فى أيام جستنيان من أباطرة الدولة البيزنطية الذى تجرد لنصرة المسيحية وأنفق فى ذلك معظم أيام حكمه من ٥٢٧ إلى ٥٦٥ ميلادية .

فلا بد إذن أن توقف وصول متاجر الشرق إلى بلاد الدولة البيزنطية قد بدأ أيام سابور الثانى واشتد أيام بهرام الخامس ويزدجرد الثانى ، وخلال حكم هذين الملكين الساسانيين المتعاقبين امتدت الحروب ١٣٥ سنة ، وهنا لابد أن تكون الحاجة قد مست ، إلى بضائع الشرق ، ويمكن القول بأن تلك الحاجة ظهرت بشكل واضح أثناء حكم يزدجرد الثانى (٤٣٨-٤٥٧) ، وفى تلك الفترة يمكن القول بأن هاشماً وصل بلاد الشام وبدأ نشاطه الواسع فى النهوض بالتجارة الملكية .

وهذه الفترة تعدل من سنى حكم ملوك الروم البيزنطيين فترة حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) ثم مَرْسيان أو مَرْقِيان (٤٥٠-٤٥٧م) وكانت بالفعل فترة اشتعال الحروب بين دولتى الروم والفرس ، فقد كانت هذه الحرب قد

سكنت قليلاً خلال حكم الامبراطور جوفيان الذى عاد إلى المسيحية بعد جوليان المرتد (٣٦٣ - ٣٦٤م) الذى ارتد عن المسيحية وعقد صلحاً مع الفُرس تنازل لهم فيه عن أرمينية .

ولكن الروم زعموا أن الفرس يضطهدون النصرانية فيما خضع لهم من أرمينية ، وثارت الحرب من جديد أيام ثيودوسيوس الثانى الذى ذكرناه . وأعقب ذلك قيام الدولة الأيسورية فى دولة الروم على يد القائد زينون (٤٧٤-٤٧٥ ثم ٤٧٦-٤٩١م) وهى دولة محاربة واصلت الحرب مع الجرمان فى الغرب والفرس فى الشرق ، واستمرت حتى قيام دولة هرقل بن هرقل سنة ٦١٠ ميلادية وهى المعروفة بصراعها الطويل مع الإسلام ، ومن أكبر أباطرة الدولة الأيسورية جستنيان الكبير الذى اشتهر بنصرة المسيحية والحرب الطويلة فى سبيلها على الجبهة الشرقية خاصة .

وإذن : فقد كان الانقطاع الطويل الحاسم للتجارة الشرقية عن الوصول إلى أسواق دولة الروم قد وقع فى الشام خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، وخلال هذه الفترة نستطيع أن نضع حياة هاشم بن عبد مناف وعمله ، لأنه كما رأينا من نص اليعقوبى وجد عندهم قبولاً وترحيباً بما عرض عليهم من إتيانهم لتجارة المشرق : فقال هاشم : أيها الملك إن لى قوماً ، وهم تجار العرب فتكتب لهم كتاباً يُؤمِّنهم ويُؤمِّن تجارتهم حتى يأتوا بما يستطرَف من أُدُم الطائف وثيابه ، ففعل قيصر ذلك . وانصرف هاشم فجعل كلما مر بحىٍّ من العرب أخذ من أشرافهم الإيلاف ؛ أن يأمنوا عندهم وفى أرضهم ، فأخذوا الإيلاف من مكة إلى الشام .

وإذن : فقد وجد هاشم الفرصة مواتية ليوسع نطاق تجارة مكة ، فاتفق مع رجال الروم على أن يأتيهم بما تحتاج إليه أسواقهم من بضائع الهند والصين وأفريقية ، وقد ذكرناها فحصل منهم على كتاب يُؤمِّنهم ويُؤمِّن تجارتهم ما داموا فى بلاد الروم ،وهذا الكتاب هو فى ذاته إذن لهاشم ومن معه فى دخول أرض الروم وقتما شاءوا ، وهذا الكتاب أو الإذن المكتوب وهو ما يسمى بإذن المرور الآمن Sauf Conduit وإذن المرور Passe - port وتسميه بعض النصوص العربية بالعَصْم أو العاصم وجمعه عِصَم أى : ضمان السلامة ، فلما حصل على ذلك الإذن أكمل عمله فصار لا يمر بقبيلة فى الطريق إلا حصل من رجالها على إيلاف أو ضمان أمان وسلامة المرور .

وهذا هو ما تنص عليه الفقرة الرابعة من نص اليعقوبى الذى نحن بصدده : «وخرج هاشم بتجارات عظيمة يريد الشام ، فجعل يمر بأشراف العرب فيحمل لهم التجارات . ولا يُلزِمهم لها مؤونة حتى صار إلى غزة فتوفى بها » وإذن : فالإيلاف اتفاق يتكوَّن من شطرين :

**الأول** : المرور بأرض القبيلة آمناً من الأذى والمكروه بما معه من تجارة .

**الثانى** : حمل تجارات القبائل دون أن يلزمها مؤونة أى نفقة ، وهذا الجزء الثانى من الإيلاف أى اتفاق التآلف والمودة والأمن والإلف على أكبر جانب من الأهمية ، ذلك أن القبائل الضاربة فى الصحارى لا تستغنى قط عن الاتصال بالعالم الخارجى ، وإذا هى انقطعت عنه تدهورت وتوحشت ولم تلبث أن تتفكك وتتلاشى .

لأن القبائل البادية - مهما بلغ حجمها وقوتها - لا تستغنى عن أشياء وأدوات حيوية لها ولا يتيسر لها أن تصنعها فى مضاربها ، وأهم هذه الأدوات السيوف والآنية المعدنية وسروج الخيل وآلة ركوبها وماعون الطبخ . فهذه أشياء لا يمكن أن تعيش القبيلة بدونها ويستحيل عليها صنعها فى مضاربها ، ومن أين لها الحديد لصناعة السيوف ، وإذا تيسَّر لها الحديد فكيف تحمِّيه وتطرقه وتصوغه سيفاً باتراً يصلح للقتال ، والسيوف بطبعها بضاعة مستهلكة رغم ما يبدو من متانتها ، فالسيف ليس مجرد قطعة من حديد بل هو مقبض ونصل ذو شفرة أو شفرتين وذباب وهو طرف السيف المدبب ، وهذه كلها تصدأ وتثلم ، ولابد من سَنِّها بين الحين والحين ، ومع توالى السن يتآكل نصل السيف ويخف وزنه وتتناقص صرامته ، ومن هنا فللسيف المستعمل عُمر ، أضف إلى ذلك أن مقبض السيف لا يكون فى العادة من نفس قطعة الحديد ، بل هو يصنع على حدة ثم يثبت المقبض فى النصل . وهذه كلها صناعة ذات فنون لا تتيسر للقبيلة فى مضاربها .

وأما الآنية فإن أمرها ليس أقل شأناً وهى أصعب صناعة من السيوف ، فلا بد للقبيلة من أن تحصل على الآنية والقدور بشتى أنواعها من الخارج ، والآنية كذلك أدوات مستهلكة خصوصاً فى مضارب البدو حيث يوضع الإناء على أثافى الأحجار

ليصنع فيه الطعام ، ثم ينظف بعد ذلك بالحكِّ بالرمل أو الحجارة فيسرع استهلاكه ولا يسلم أن يثقب ، ورمال الصحراء لا تصلح فى الغالب لصنع جرار الفخار ، وآنية الفخار مع ذلك سريعة العطب ، فلا غنى للقبيلة عن الاتصال بالعالم الخارجى للحصول على الآنية .

وأما أدوات ركوب الخيل من قرابيس ومهاميز فعسيرة الصنع على مستوى كبير من الجودة فى الصحراء ، فهى صناعة تتكون من خشب متين ومعدن وأصناف من الجلد والحشو لا تتيسر بسهولة فى الصحراء . ولا ننسى هنا الدروع ، فإن البدو يستطيعون صنع دروع الجلد ، وهى الدرقات ، ولكن كيف يصنعون دروع الحديد وهى تحتاج إلى حدادين مهرة وحديد أو نحاس أو برونز كثير .

فإذا حُرِمت القبيلة من هذه الأشياء فليس هناك ما ينجيها من الهلاك ، قد تستطيع الاكتفاء بغزلها عن الوارد من الأقمشة ، وقد تستطيع العيش إلى ما لا نهاية فى خيام الصوف والجلد ، وقد تستطيع الاعتماد فى غذائها على التمر واللبن واللحم والماء وشىء من الدقيق ، ولكن الحياة فى الصحراء ليست مجرد غذاء وكساء ومأوى . إنها صراع متصل للبقاء ، فليست هناك حياة وإنما نجاة متصلة من الموت أو ما يسمى باسم سيرفايفال Survival وهذا لا يتأتى إلا بالدفاع عن النفس وخوض المعارك بالسيوف والدروع والخيل والحراب والنبال والبيضات ، وليس من الضرورى أن تخوض القبيلة معارك البقاء كل يوم ، ولكن يكفى أن تعرف القبائل الأخرى أن لديها سلاحاً وخيلاً وفرساناً ومقاتلين مستعدين أبداً للطيران إلى ميدان القتال فيتحاشوا العدوان عليها وتأمن على نفسها .

ويكفى أن تعرف القبيلة أن حِماها لا يمكن أن يُنتهك دون قصاص سريع وأن سيوف رجالها بواتر وسواعدهم قوية وضرباتهم مُصْمِية وأن فرسانها لا يُشق لهم غبار لفرط سرعتهم يكفى أن يعرف الناس ذلك حتى تضمن القبيلة سلامتها . ولهذا فإن القبيلة تكسب نصراً اليوم وتعيش عليه دهراً لأن شعراءها لا يزالون يُذكِّرون الناس بسيوف القبيلة وقوتها وانتصارها ، وهذا هو سلاح الفخر وهو امتداد كلامى للقوة العسكرية .

لهذا لا تستغنى القبيلة عن مدد متصل من السيوف والآنية وأدوات ركوب الخيل بما فيها حدوة الحصان ، فإذا انقطعت صلة القبيلة بالعالم الخارجى قَلَّ عتادها من السيوف وآلة الخيل وضعفت عن الدفاع عن نفسها ، ثم يهزل بنيان أبنائها الجسدى بطول الاعتماد على اللبن واللحم والتمر ، فلابد من شىء مطبوخ بين الحين والحين ، واللحم نفسه لا ينضج إلا فى آنية وإلا فإن الاستهلاك منه يصبح عظيم الكلفة إذا اقتصرت معالجة اللحم على الشى ، فلابد من غَلْيه للاستفادة بالمرق وثرد الخبز فيه أو طهو الشعير أو الجشيش أو الدقيق.

وتحصل القبيلة على المدد اللازم من السلاح والآنية من القوافل المارة بأراضيها أو من أى مركز عمران مستقر قريب منها ، وفى الغالب يكون هذا المركز قرية كبيرة أو صغيرة أو واحة ذات سوق دائم أو موسمى يلم به التجار أو طالبو السلع التى لا تصنع فى الصحراء ، ولهذا فلا غنى للقبيلة عن طريقة للاتصال المباشر بطريق من طرق التجارة مع الاعتماد على مركز مدنى قريب ، هذا إلى أن الاتصال بالعالم الخارجى فى ذاته ضرورى لمحافظة الإنسان على مستوى معقول من الحضارة وإلا استوحش وتدهور وطال شعره وتشعث واغبرت هيأته وغلبت عليه القذارة القاتلة مع الزمن كما ترى فى حال بعض قبائل الدواخل فى الصحارى والغابات الاستوائية أو المعتدلة أو الباردة واستمرار الحياة على مستوى معقول من التحضر مستحيل بدون الاتصال بالعالم الخارجى بواسطة الطرق ، إما بالوقوع عليها أو إمكانية الاتصال بها بأى سبيل. أضف إلى ذلك أن هذا الاتصال يعرِّفها بما يدور فى العالم من حولها ولو عن طريق السماع المتأخر والصدى البعيد ، وبدون ذلك تنقطع الجماعة عن مجرى الحياة وتنفصل عنها وتتدهور ثم تتفكك وتتلاشى أو تختفى فى غيرها.

ثم إن القبائل البادية لديها كذلك ما تعطيه أو تبيعه أو تبادل به : لديها فائض الصوف والتمر والكثير من الأدم أى الجلود ولديها أيضاً ماشية تباع من غنم أو أعناز أو جمال ، وأحياناً محصولات زراعية أو معادن مثل الملح أو الحديد أو التبر وما إليها مما يتحصل للقبيلة من موطنها بعلاج يسير.

ولهذا تهتم القبائل البادية - دون تفريط فى بداوتها وتمسكها بعزة العيش فى الصحراء مع شظفها وقسوتها وأخطارها - من الاتصال بطريق تجارى والاعتماد على مركز عمرانى ، ومن هنا فإن قبائل البدو تحرص أشد الحرص على تأمين القوافل المارة فى أراضيها بخفارة أو دون خفارة ، فإذا سمعنا عن بدو يقطعون الطرق ويعتدون على القوافل والتجار، فهؤلاء ليسوا رجال قبائل محترمة ذات كيان ، بل بقايا قبائل تدهورت وتوحشت أو خلعاء قبائل ومطاريد مجتمعات بدوية أو لصوص وسُرَّاق عاديون يشبهون اللصوص فى كل مجتمع، وهؤلاء جميعاً خوارج على نظام العيش المقرر فى الصحراء ولا يحسب لهم حساب ، والقبائل المحترمة الحريصة على سمعتها وبقائها تطارد هؤلاء السراق وتقضى عليهم كلما تيسر لها ذلك.

وهذا الذى نقوله حقيقة معروفة لكل من يعرفون حياة البداوة والصحارى. ورسول الله ﷺ عندما استولى على خيبر وفَدَكَ وتيماء قضى فى نفس الوقت على كل مقاومة لقبائل غَطَفَان وأسد وطىء وذبيان وما إليها ، وعندما ضم مكة إلى أرض الإسلام أحست هوازن أن مصيرها فى الميزان ، فانبرت تحارب الإسلام لأن مكة كانت مركزها العمرانى، ومن هنا تبدو لنا موقعة حنين منطقية بل لم يكن منها مفر للقضاء على معارضة هوازن للإسلام ثم ضمها إليه أولاً ، ثم ثقيف بعد ذلك.

## الأسوَاق والموَانى وَطُرق التجَارة :

وإذن فهذا الذى فعله هاشم من الحصول من دولة الروم على العصم وعلى الإيلاف من رجال القبائل الضاربة على الطريق إلى الشام كان عملاً بالغ الذكاء ، وهو كان حجر الزاوية فى بناء قريش اقتصادياً ، لأن الناحيتين السياسية والعسكرية - وهما بناء قصى وعبد مناف كانتا أساسيتين ، ولكن القاعدة الاقتصادية التى بناها هاشم ستصبح العمود الفقرى فى بناء قريش ، فإن المال كما هو معروف عصب القوة . وقريش انتقلت بعمل هاشم من قبيلة عادية الثروة إلى قبيلة غنية ، وبالمال ، تيسرت لقريش أمور السياسة واقتدرت على بناء قوتها العسكرية ، وبالمال كذلك استطاعت أن تقيم الركن الرابع من أركان قوتها بعد التفوق العسكرى والسياسى والمالى ، وهو

القيام بأمور الدين ، لأن الدين فى تلك العصور كان يُؤمِّن الحياة والاستقرار والانتظام والرخاء ولكنه غالى التكاليف يتطلب النفقة والبذل على ما سنراه .

وقد تحدث عن الإيلاف والعصم وتجارة العرب وأسواقهم فى الجاهلية بتفصيل الأستاذ محمد سعيد الأفغانى فى كتاب مشهور عنوانه « أسواق العرب » يعتبر منذ صدوره من الأصول التى لا يستغنى أحد عن الرجوع إليها فى دراسات جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده ، وقد اعتمدنا عليه اعتماداً رئيسياً ( إلى جانب الأصول ) فيما كتبنا عن عمل هاشم بن عبد مناف .

والفقرة الخامسة من كلام اليعقوبى الذى أتينا به تبين لنا كيف أن قريشاً كلها عرفت قدر ما فعل هاشم وحرصت على استمراره بل اشتركت فى إكماله .

قال اليعقوبى : « ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش وخافت أن تغلبها العرب ، فخرج عبد شمس إلى النجاشى ملك الحبشة ، فجدد بينه وبينه العهد . ثم انصرف فلم يلبث أن مات بمكة ودُفِن بالحجون . وخرج نوفل إلى العراق وأخذ عهداً من كسرى ، ثم أقبل فمات بموضع يقال له سلمان ، وقام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف »[1].

ومعنى ذلك أن أبناء عبد مناف أكملوا شبكة العصم والإيلاف وقبضوا بمهارتهم وذكائهم ونشاطهم على ذلك المصدر العظيم من مصادر القوة ، وعلى أيديهم تفتحت واتسعت آفاق عصر جديد فى تاريخ التجارة فى جزيرة العرب ، فبينما كانت التجارة فى الجزيرة تقتصر على عدد من الأسواق الداخلية تبدأ عند هَجْر والمُشَقَّر على ساحل الخليج وتتوالى بعد ذلك فى نسق من موضع إلى موضع من شرقى الجزيرة إلى جنوبها حتى عدن ثم تصعد إلى مكة معتمدة فى ذلك على ملاحة غير منظمة مراكزها موانىء صغيرة مثل هَجَر وصُحار وعَدَن انتقلت فى الدور الجديد إلى طور عالمى فاتسعت موانى هجر وصحار - والمُكَلاَّ وعدن والحديدة والشعيبة ، وتسارع تجار البحر إلى شواطىء الجزيرة قادمين من آسيا وأفريقية حاملين المتاجر المطلوبة ومن الموانىء تنتقل إلى الأسواق ، ويخف إليها التجار وتتوالى الأسواق على نسق على مدار العام حتى

(١) اليعقوبى : ١/ ٢٤٤ .

تكون أسواق الحجاز فى ذى القعدة وذى الحجة فى آخر العام القمرى وهو نهاية سلسلة الأسواق وأكبرها وأهمها ، وفيها يتجمع التجار من كل مكان ليعقدوا الصفقات الكبيرة مع رجال قريش الذين أصبحوا رجال أعمال كبار ، لا يقتصر تعاملهم على المبادلة والمقايضة بل عرفوا الذهب والفضة والدينار والدرهم .

وفى أسواق الحجاز ومكة نشأت الصيرفة العربية ومهر فيها القرشيون وتجمعت فى مكة المتاجر والبضائع والأموال ، فأصبح القرشيون مياسير ، ونشأ فيهم تجار كبار أصحاب رؤوس أموال ضخمة ، ومع التجارة والمال تفتحت الأذهان واتسع العلم وزادت الخبرة ، واحتاج التجار إلى الكتابة والحساب فتطورت الكتابة على أيدى التجار وظهر الصيارفة المتخصصون فى تجارة المال وصرف الذهب والفضة ، ونشأ الكتبة والحَسَبة وهم أهل النسىء ، وهو حساب الزمن ومواعيد الديون ونسب الربوات ، وأخذ الكتاب أصحاب القلم ( القلامس ) أهمية كبرى على ما ذكرنا ، وأصبحت قريش قبيلة غنية وسط عالم من القبائل يعيش معظمه على الكفاف ، وثروات سادات القبائل الأخرى كانت نخيلاً وقطعان جمال وشياه وأعناز مع بعض البقر فى المواضع التى تصلح لحياة البقر فى الواحات الكبرى والصغرى وأراضى المرتفعات العالية مثل جبلى طىء (جبل شمر) حيث كانت منازل قبيلة طىء وجاراتها أسد وعَبْس وذُبْيان وكِندة وغطفان وهوازن ، وكلها قبائل رعاة وظعن أو نصف استقرار Semi - sedentaries ، وكل ذلك تم على مدى نصف قرن من أيام هاشم وإخوته ، لأن عجلة التقدم إذا سارت ووجدت ما يدفعها أصبحت كالسفينة هبت عليها ريح مواتية، ونفوس البشر إذا تفتحت على إمكانات الغنى واليسار والرخاء اشرأبت للمزيد وشحذت الهمم وتفتحت الأذهان وآفاق التقدم ، وتلك هى فترات القفزات الحضارية فى تواريخ الشعوب وقصة الحضارة ، فهنا ، ونحن نتكلم عن قفزة التجارة والعمران معها من أيام هاشم وإخوته ثم بنيه ، نحن نشهد عجلة الحضارة وقد انتظمت وسارت إلى الأمام على يد القرشيين وأصحاب الملكات التجارية من أهل الجزيرة وخاصة شعوب البحر على سواحل الخليج وجنوبى الجزيرة ، وانتقلت الجزيرة كلها من حال إلى حال على يد قريش تؤيدها وتشد أزرها كبار القبائل

ورجالاتها لأن التجارة حضارة ، فهى تبادل متاجر وخبرات ومهارات وصناعات وأفكار .

وإليك بياناً عن أسواق العرب ومواقيتها كما صارت وانتظمت فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، وهو الوقت الذى بدأت فيه قريش عصر الذروة فى تاريخها قبل الإسلام ، وهو عصر هاشم وإخوته ومعاصريه وحلفائهم من رجالات العرب ثم عصر عبد المطلب وسنتكلم عليه .

وفيما يلى بيان الأسواق والموانى وخط مسير التجارة ومواقيت الأسواق ، والمواقيت هنا تقريبية ، لأنها وردت فى النصوص فى مواقيت مختلفة ، وقد قربناها على سبيل التيسير ، وأتينا بترتيب الأسواق هنا بحسب ما هو وارد فى أصولنا العربية وإن كنا نرى أن البداية المنطقية لدورة الأسواق تكون فى هجر فى ربيع الثانى ، أما سوق دومة الجندل (التى تقول الأصول العربية إنها أول سوق فى العام) فتكون فى ربيع الأول من العام التالى :

| اسم السوق أو الميناء | تعريف به وموعده | القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التى تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت | ملاحظات |
|---|---|---|---|
| دومة الجندل | ربيع الأول وقد تمتد إلى آخره | بنو كلب بن وبرة من قضاعة وقبيل الإسلام استقل بها اكيد الكلبى | نظن أن ربيع الأول هذا يكون من العام الجديد بعد انتهاء أسواق الحجاز فى ذى الحجة . |
| هجر<br>المُشَقَّر<br>صُحار | ربيع الثانى<br>ربيع الثانى أو جمادى الأول<br>ميناء على ساحل البحر فى عمان الأسبوع الأول من رجب | بنو عبد القيس<br>بنو عبد القيس يشرف عليها الأزد وفى العصر النبوى كان متولى السوق الجلندى بن المستكبر | هنا نظن أن دورة الأسواق تبدأ كل عام |

| اسم السوق أو الميناء | تعريف به وموعده | القبيلة أو القبائل صاحبة السوق أو الدولة التى تأخذ العشور أو المكوس إن وجدت | ملاحظات |
|---|---|---|---|
| دبَا | ميناء على ساحل بحر العرب | الأزد | |
| الشِّحْر | آخر رجب أو آخر يوم فيه ميناء صغير فى حضر موت منتصف شعبان | أصحاب حضر موت | |
| عـــدن | أوائل رمضان أو اليوم الأول منه | أصحاب السلطان فى جنوب اليمن | |
| صنعاء | أول رمضان أو منتصف رمضان أو آخره | أصحاب السلطان على وسط اليمن وشماله | |
| حباشة | جنوبى تهامة فى شهر رجب | قبائل شمال اليمن | لم تذكرها |
| حجر اليمامة | من عاشوراء إلى آخر محرم | بنو حنيفة وتميم | معظم المراجع |
| ذو المجاز | موضع بمنى على فرسخ من عرفة أو ذى الحجة ومنها يتوجه الناس إلى الحج | هذه هى أسواق الحجاز الثلاثة وكلها تحت إشراف قريش | بهذه الأسواق ينتهى موسم الحج وتنتهى دورة الأسواق |
| عكاظ | بين مكة والطائف من أول ذى القعدة إلى ٢٠ منه | | |
| مجَنَّة | بعد عكاظ | | |
| النطاة | بخيبر آخر المحرم | يهود خيبر | |

ومن الواضح أن هذا النظام لم يوضع وينتظم على هذه الصورة دفعة واحدة ، وإنما هو تكامل مع الزمن بعد أن نهضت قريش بأسواقها وجعلتها أكبر الأسواق فى الجزيرة وآخرها فى دورة الأسواق كل سنة . وربطتها بالحج أيام عبد المطلب ، حتى

يفرغ الناس من الأسواق ثم يتوجهون للحج فى مكة ومناسك الحج الأخرى ، وكلها تحت إشراف قريش وهى التى تفيد منها مادياً ومعنوياً .

وقد أبدى الأستاذ سعيد الأفغانى ملاحظات قيمة على أسواق العرب ، ولا بأس من إيرادها ملخصة هنا .

ونحب أن ننبه قبل هذا أن بياننا هنا الذى اعتمد أساساً على بيان الأستاذ سعيد الأفغانى أضاف أسواقاً ، لم ترد عند سعيد الأفغانى . وقد أتينا بالأسواق هنا على أساس ما بيناه فى خريطة التجارة فى جزيرة العرب قبل الإسلام فى أطلس تاريخ الإسلام الذى اعتمدنا فى عمله على أقصى ما استطعنا الاطلاع عليه من الأصول والمراجع العربية وغير العربية . وفيما يلى موجز لأهم ملاحظات الأستاذ سعيد الأفغانى :

نستطيع أن نقسم أسواق التجارة فى جزيرة العرب قبل الإسلام إلى الأقسام التالية :

أ- أسواق عربية تقع فى مناطق تسيطر عليها دول عربية ، أى عربية على أطراف الجزيرة . ويدخل فى هذه الأسواق أحياناً أسواق الحيرة وهجر البحرين وعُمان ، فهذه كانت فى كثير من الأحيان خاضعة لسلطان الفرس ، ووُلاتُهم على مواضع الأسواق كانوا يشرفون على السوق ويأخذون من الناس العشور والمكوس . وقبيل الإسلام كان سلطان فارس يمتد على أسواق العرب على الساحل الشرقى فيما عدا أسواق الحيرة التى كانت تشرف عليها دولة المناذرة ، وأشرفت على أسواق دومة الجندل قبائل قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وقد انفرد بها آل أكيدر قبيل العصر النبوى . ويدخل سعيد الأفغانى هنا بُصرى وأذرعات وغزة وهى فى بلاد غسان ، وكلها خارج جزيرة العرب ، ولكنها متصلة بأسواق الجزيرة ، وكان العرب يترددون عليها . وكما أشرنا سابقاً يجعل الأفغانى دومة الجندل أول الدورة السنوية للأسواق كل عام . ولكننا نرجّح أن سوق دومة الجندل يجىء بعد سوق النطاة فى ربيع الأول من العام التالى .

ب- أسواق أنشأها العرب فى بلادهم بحكم الحاجة ، فصارت - مع الزمن - تمثلهم

أصدق تمثيل فى عاداتهم فى البيع والشراء والمخاصمات وعقود الصلح وتحكيم الحكام وعقود الزواج التى تتم فيها وتقرير حقوق كل من الزوجين ، ويشرف على كل سوق منها رؤساء القبيلة أو القبائل الضاربة فى الإقليم . وهذه القبائل لا تعشر المتاجر أو تأخذ عليها مكساً ، ولكنها كانت تتقاضى خفارات وتفيد من الأسواق فوائد عظيمة . وهذه الأسواق واردة فى البيان السابق وفى خرائط أطلس التاريخ الإسلامى ومنها أسواق ذات طبيعة خاصة بسبب مواقعها الجغرافية ، وهى التى تكون على البحر كعدن وصُحار ودَبا . وفى هذه يجتمع تجار الحبشة والهند والصين وفارس « ويتضاءل فيها الطابع القومى بمقدار شأنها التجارى » .

وهذه الملاحظة أتى بها الأستاذ سعيد الأفغانى استنتاجاً ، ولكننا نعرف بحكم اطلاعنا على نظام أمثال هذه الموانى والثغور فى العالم كله فى تلك العصور أن الموانى تختلف فى نظامها من ناحية لناحية ، ففى بعضها تكون الضرائب مناصفة بين قبائل المنطقة وإحدى الدول ذات السلطان على المناطق المجاورة كما نرى فى ميناء عيذاب مثلاً حيث كانت المكوس تُؤدَّى لرئيس البُجاة ويتقاسمها مع سلطان مصر . وفى العادة يكون فى مثل هذه الموانى جماعة من التجار المحليين هم الذين يتولون تنظيم السوق وتأمينه وجباية المكوس أو الضرائب وأداء جزء منها إلى القبائل المسيطرة على المنطقة أو للدول صاحبة السلطان . وأكبر مثال لذلك البندقية وغيرها من الموانى الإيطالية التى تحولت إلى جمهوريات تجارية لأن تجارها اشتروا الحقوق على السوق من الدول الغالبة بمبالغ سنوية تؤدى لها ، ثم استقلت بنفسها وامتنعت عن أداء أموال لأحد ، بل تحولت إلى قوى بحرية ذات جيوش وأساطيل مسلحة كما نرى فى حالة البندقية .

وبالنسبة لموانى الجزيرة قبل الإسلام لم تتطور إلى هذا الحد ، ولكن كان فى كل ميناء منها جماعة من التجار المنظمين يرأسهم شيخ التجار أو الشاه بندر أى رئيس البندر ، وهذا الرئيس هو الذى يتولى أمر الميناء والسوق ويشرف على دور صناعة السفن بالاشتراك مع غيره من التجار ، هكذا كان الحال فى صحار ودَبَا والشِّحر والمكلا وعدن وما إليها ، وإن كانت التفاصيل لدينا عن ذلك قليلة جداً .

ويضيف الأستاذ الأفغانى أنه اقتصر على ذكر الأسواق العامة دون المحلية الخاصة

بكل قبيلة أو بمجموع من القبائل، فلا شك أنه كان لكل قبيلة سوقها المحلى الدورى فقد تكون السوق أسبوعية أو شهرية أو سنوية . ويضرب مثلاً بذلك سوق بدر فقد كانت سوقاً محلية يتجمع فيها تجار المنطقة كل عام فى موسم معين ، وهذا صحيح كما نرى فى تفاصيل غزوة بدر الكبرى وغزوة بدر الموعد بصورة خاصة .

ولم نذكر هنا المدن الكبرى أو مركز العمران ، فكل مدينة سوق كبيرة دائمة ومثال ذلك مكة وغزة ودومة الجندل وخيبر ، وهناك أسواق صغيرة محلية ، ولكنها دائمة اشتهرت بتجارات معينة ، مثل دارين فى منطقة الخليج ، وقد اشتهرت بأنها مجمع تجار العطور ، ومن أراد العطور ذهب إليها ، وقد اشتهرت سوق دارين بالمسك وعطور الهند التى كانت تجلب إليها ، وبلغ من ذلك أن نسبة الدارى أصبحت اسماً لتاجر العطور فى كل مكان ، وجاء فى الحديث الشريف : مثل الجليس الصالح مثل الدارى إن لم يحذك من عطره علقك من ريحه . ومثل هذه الأسواق يقصدها من يريد أصنافاً معينة . ومن أمثلة ذلك أيضاً رُدَينة وهى فُرضة على شط البحر فى شرقى الجزيرة . وقد خفى موضعها علينا الآن ، ولكنها كانت مركزاً لصقل وإعداد نوع من الرماح كان يؤتى بسنانها من الهند ، فقيل رماح ردينية ، وهناك أيضاً الرماح الخطية منسوبة إلى موضع يسمى الخط فى شرق الجزيرة أيضاً .

ومن البلاد التى اشتهرت بتجارة أصناف معينة فأصبحت سوقاً دائمة الطائف حيث جادت صناعة ودبغ الجلود واشتهر البلد بأدم أو أُهَب ( جلود ) الطائف واشتهر البلد كذلك بزبيبه وفواكهه .

وكان بعض أصحاب النفوذ من الدول المحيطة بشبه الجزيرة ينظمون قوافل تجارية خاصة بهم تسمى الواحدة منها لَطِيمة ، وهى لفظة غير عربية ، والغالب أنها سريانية أو نبطية ، وقد اختلف العرب فى معنى اللطيمة فيقال إنها القافلة أو التجارة التى تحملها القافلة .

وهذا يكفى عن أسواق العرب وتطور التجارة المكية فى هذا المقام[1].

---

(١)انظر :

- سعيد الأفغانى : أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام ، الطبعة الثالثة دار الفكر ، بيروت ١٩٧٤ .
الكتاب كله هام هنا ولكن انظر بصفة خاصة باب إيلاف قريش ص ١٤٦ وما بعدها .

- ظافر القاسمى : الإيلاف أو المعونات غير المشروطة . مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ، نيسان ( ابريل ) ١٩٥٩ ونحن لا نوافق صاحب المقال على رأيه فى معنى الإيلاف - وانظر إلى جانب مراجعنا الواردة فى آخر الفصل ثبت المراجع الوافى الذى أورده سعيد الأفغانى ص ٥١٥ وما بعدها .

وسنستكمل كلامنا عن تلك النهضة الكبيرة فى مكة على يد قريش وما اتصل بها من تطورات أخرى فى شرق الجزيرة فى سياق كلامنا عن عبد المطلب ، رابع مؤسسى مجد قريش قبل الإسلام .

## كَلمة ختَاميّة عَن هَاشِم وَأعماله :

ونختم كلامنا عن هاشم وإخوته وأعمالهم بالفقرة الثالثة من الطبرى يسوقها عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى يتحدث عن هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل قال : « فسادوا بعد أبيهم ( عبد مناف ) جميعاً ، وكان يقال لهم المجبِّرون » قال: ولهم يقال : « فكانوا أول من أخذ لقريش العِصَم فانتشروا من الحرم : أخذ لهم هاشم حَبْلاً من ملوك الشام الروم وغسان .

وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشى الأكبر ، فاختلفوا بهذا السبب إلى أرض الحبشة .

وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة ، فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس ، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير ، فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن فجبَّر الله بهم قريشاً فسموا المجبِّرين .

وقيل : إن عبد شمس وهاشماً توأمان ، وإن أحدهما وُلِد قبل صاحبه وأصبع له ملتصقة بجبهة صاحبه ، فَنُحيت عنها فسال من ذلك دم ، فَتُطُيِّر من ذلك ، فقيل : تكون بينهما دماء . وولى هاشم بعد أبيه السقاية والرفادة »[1] .

ويلاحظ أن الطبرى يستعمل كلمة الحبال فى معنى العصم ، وأبو الفضل إبراهيم محقق نسخة الطبرى التى نعتمد عليها هنا يقول فى الهامش : العِصَم – بكسر ففتح . الحبال ويراد بها العهود ، والمفرد فى هذه الحالة هو العِصَم ومعناه الحبَل وهو العهد .

ولا نتعجب فى هذه الحالة من أن الله سبحانه وتعالى يقول فى سورة آل عمران : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ آل عمران ] لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين أى : باللغة العربية التى يفهمها كل العرب ، فلا بد أن كلمة الحبل بمعنى

---

(١)الطبرى ، تاريخ : ١/ ٢٥٢ .

العهد كانت مفهومة تماماً لكل العرب . وكذلك فعل « اعتصم » بمعنى تمسك به كان واضحاً لكل العرب ، وهذا يدل على أن استعمال الحبال بمعنى العهود التى كان الناس يتفقون على عقدها فيما بين بعضهم وبعض كما فعل هاشم وإخوته مع الملوك كانت شائعة جداً عند العرب ، وكانت تجرى على كل لسان ، وقد استعمل كلمة الحبل بمعنى العهد رسول الله ﷺ فى الصحيفة التى كتبها بين المسلمين والمؤمنين من مهاجرين وأنصار فى يثرب ، ومن انضم إليهم وحالفهم أى : اعتصم وتمسك بالعهد من اليهود .

وننتقل الآن إلى الحديث عن عبد المطلب ودوره فى بناء قريش قبل الإسلام مرجئين بقية الكلام على نتائج عمل هاشم إلى ما بعد الفراغ من الكلام عن عبد المطلب وجهوده فى بناء الركن الرابع من أركان قوة قريش وهو الدين .

## عَبد المطّلب بن هَاشِم وَدَوره فى بناء الركن الرَّابع مِن أركان قوّة قريش قبْل الإسلام وَهو الدّين :

بعد موت هاشم تقول النصوص إن أخاه المطلب بن عبد مناف «قام بأمر مكة» وهى عبارة لا نفهم المراد منها على وجه الدقة ، فما كانت مكة بدولة حتى يقوم بأمرها رجل، وإنما كانت مستقر قبيلة، والقبيلة ترأسها جماعة ساداتها ، ورئيس القبيلة لايقوم بأمرها ، بل هو ليس رئيسها بالمعنى الدقيق ، ثم إن قريشاً لم تكن مالكة لمكة ولا منفردة بأمرها وإنما هى دخلتها وانتزعت السيادة عليها من خزاعة ، ولكنها لم تملكها إذ أن دخول قريش مكة لا يمنع من أنه كان بمكة ناس آخرون من قبائل أخرى ليخضعون للرياسة القرشية ، فالخزاعيون الذين بقوا بمكة والقضاعيون الذين دخلوها مع قصى لم يكونوا خاضعين لقريش . إنما رياسة قريش هنا كانت زعامة قبلية شرفية ، وصاحبها لا يقال فيه إنه قام بأمر مكة ، وسنرى أنه عندما يقترب أبرهة من مكة سيخلى له عبد المطلب الطريق قائلاً : إن للبيت رباً يحميه ، ولو كان يتولى أمر مكة فعلاً لحارب الأحباش أو لجمع قومه وتشاور معهم فى الأمر ، أو لتفاوض مع أبرهة على الأقل ، كما فعل زعماء المكيين عندما أراد الرسول ﷺ دخول مكة للعمرة عام الحديبية .

ومحمد رسول الله ﷺ عندما أزمع العمرة لم يكن يرى أنه يقتحم بلداً على أهله ، بل كان يريد العمرة ويطوف بالبيت فى بلد المفروض أنه مفتوح لكل العُمَّار والحجاج - إنما هم القرشيون الذين اعترضوا واعتبروا دخوله مع المسلمين انتهاكاً لحرمة قبيلتهم، وعندما اعتمر رسول الله وأصحابه من قابل ترك البلد زعماء القرشيين ، ولكنهم لم يحاربوا ، لا ولا حاربوا يوم فتح مكة ، لأن حقيقة وضع قريش بالنسبة لمكة لم تكن حقيقة قبيلة تملك بلداً . وقريش قبل الإسلام لم تكن تدير مكة أو تتولى أمورها ، أو تعتبر نفسها مسئولة عن مرافقها أو حماية أهلها ، ولو قُتل رجل من أهل مكة من غير القرشيين فما كانت قريش لتقوم بدور ولى القتيل ، وما كانت لها رياسة أو سيادة على البلد بالمعنى الدقيق لهذه الألفاظ ، بل ليس لدينا دليل على أن قريشاً كانت تملك أرض مكة أو - الأرض من حولها - إنما ملك القرشيون دورهم ، وملك كل ساكن فى مكة داره ، والوظائف التى كان القرشيون يتولونها لم تكن وظائف سلطة وإنما مناصب شرف ومسئوليات قبلية بعيدة كل البعد عن الوظائف الإدارية أو وظائف أعضاء المجلس البلدى مثلاً ، كما كان الحال فى المدن والموانى الأوروبية أول ظهور المدن فى الغرب الأوروبى ، ولم تكن مشيخة قريش بمجلس بلدى أو مجلس حاكم كما ذهب بعض الباحثين الغربيين ، نعم إنها كانت قريبة من هذا المعنى ولكنها ليست به أصلاً .

وهذه كلها معانٍ ينبغى أن تكون فى ذهننا لنفهم على وجه الدقة حقيقة وضع قريش فى مكة وعلاقتها بها قبل الإسلام ، وهو وضع فريد فى بابه ، وعلاقات قريش بمدينة مكة تنبع من قريش بصفتها قبيلة لا بصفتها دولة أو تنظيماً إدارياً ، واليعقوبى عندما يقول إن عبد المطلب قام بأمر مكة ينظر إلى الموضوع نظرة رجعية ، أى أنه يرجع بصورة مكة الداخلة فى دولة الإسلام ويطبقها على مكة قبل الإسلام . وعبد المطلب فى الحقيقة إنما قام بأمر القبيلة وأحلافها لا بأمر المدينة . والفرق بين المعنيين كبير . والمطلب بن عبد مناف عندما قام بأمر القبيلة بعد أبيه لم يرث ملكاً ولا سيادة ولا إمارة ولا سلطاناً ، وإنما هو ورث مسئولية ، والمسئولية لا يتنازع عليها الناس ، حقاً إن حمل تلك المسئولية كان يجلب معه سُؤدداً أو شرفاً ، ولكن السؤدد هو المعنى

الروحى للسيادة ، والشرف يطلبه من يريده ويقوم بتكاليفه ، والتكاليف هنا واضحة معروفة ، فهى غرم مالى متجدد ، فهى تلزم صاحبها بالرفادة والسقاية وهما عملان كانا يجتذبان الناس إلى مكة ، ولكن صاحبهما كان يتحمل معظم الغرم ، أما الأرباح فكانت تتفرق فى أهل مكة كلها ، كل بحسب اجتهاده وملكاته ومساهمته فى التجارة وقدراته على الإفادة مادياً من الحجاج .

وهاشم وإخوته حوَّلوا مكة إلى مركز تجارى كبير ، وجمعوا من ذلك مالاً وفيراً ، ولكن غيرهم من القرشيين ممن نظروا إلى الناحية التجارية والمالية وحدها كسبوا أكثر ، وواحد من هؤلاء وهو جدعان بن عمرو بن كعب ثم ابنه عبد الله بن جدعان وهما من بيت تيم بن مرة جمعا من المال أضعاف ما جمع هاشم وإخوته دون أن يتحملا نفقات شرف أو تكاليف سؤدد ، وبيت عبد العزى بن قصى ضاهى بيت جدعان بن عمرو فى المال والغنى ، وكذلك كان الحال مع بيت المغيرة من بنى مخزوم بن يقظة بن مرة ونوفل بن عبد مناف ، وهو أخو هاشم كان أغنى وأكثر مالاً من المطلب ، ولكنه لم يتقدم للرياسة والمطلب نفسه لم يكد يأنس فى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم استعداداً لحمل هذا الشرف وذلك السؤدد حتى تنازل عنه له طواعية عن طيب خاطر ، وعبد المطلب نفسه عندما تولى هذا الشرف وجد نفسه وحيداً ، وكان عليه أن يحمل معظم العبء لا يساعده فى ذلك أول الأمر إلا ابنه الحارث ، وكان عليه أن يجدَّ ويجتهد حتى يحصل على المال الذى يعينه على حمل العبء ، وعندما تتقدم بنا الدراسة فى حياة عبد المطلب سنرى حكاية اجتهاده فى حفر بئر زمزم والبحث عما كانت جرهم قد ألقته فيها قبل طَمِّها على ضوء جديد .

قام المطلب بن عبد مناف إذن مقام أخيه هاشم ، وكان المطلب من أكثر إخوة هاشم اجتهاداً فى إتمام عمل أخيه مع أنه كان أصغرهم سناً - فيما يقول الطبرى - وهو الذى أخذ العِصم من الحميريين سادة اليمن . وغريب من الأمر أن عبد شمس أخا هاشم لم يتطلع للرياسة مع ما يقال من أن أمية ابنه حسد هاشماً على ما نال من سؤدد وشرف . وكان - أى ابنه - ذا مال فتكلف أن يصنع صنيع هاشم وعجز عنه ، فشمت به ناس من قريش فغضب ونال من هاشم ، ودعاه إلى المفاخرة ، فكره هاشم

ذلك لِسِنِّه وقدره ، ولم تدعه قريش وأحفظوه ، قال : فإنى أناظرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحرها ببطن مكة أو الجلاء عن مكة عشر سنين ، فرضى بذلك أمية وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى ، فنفَّر هاشماً عليه أى حكم لهاشم على ابن أخيه ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره وخرج أمية إلى الشام ، فأقام بها عشر سنين ، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية» (١) .

وإنما أخرت هذه الحكاية مع أن موضعها كان فى حياة هاشم لأننى غير مطمئن إلى صحتها لأن ابن الأخ لا ينازع عمه وأبوه موجود ، وإذا كان أمية بن عبد شمس على صِغَر سنه إذ ذاك ذا مال ، فلا بد أن أباه وهو الذى أخذ العِصم من النجاشى صاحب الحبشة أغنى من ابنه فلماذا لم يَرُدَّ ابنه أمية عن هذه الحماقة وكيف ترك الكاهن الخزاعى يستجيب لما طلبه هاشم من جلاء أمية عن مكة عشر سنين .

والحقيقة فيما يبدو أن أمية قد يكون قد نَفِس على عمه مكانه فوقعت بينهما مفاخرة أو تَحَدّ وتدخلت قريش للصلح ، وقد يكونون طلبوا رأى هذا الكاهن فأفتى بأنَّ من عليه الحق أو المخطىء يغرم خمسين ناقة سود الحدق تُنحر للناس ، وخسر أمية وغرم وترك مكة ليطلب المال والغنى عن طريق التجارة فى الشام ، وخرج إلى الشام وليس من الضرورى أن يكون قد نُفِى من البلد أو ظل بعيداً عنه عشر سنين ، لأن معظم أولاده ولدوا ونشأوا بمكة ، وعبد شمس فى هذا كله مع أخيه دون ابنه ، وسيظل معه وعندما يتوفى هاشم لن يطلب عبد شمس الرياسة ، بل تركها للمطلب ، ربما لأنه لم يشأ أن يتحمل مغارمها ، ثم جاء الرواة بعد الإسلام وبعد شبوب العداوة بين بنى أمية وبنى هاشم ، فنظروا فى الحكاية وصاغوها صياغة رجعية ، فجعلوا عبد شمس أولاً يولد مع هاشم وأصبع أحدهما لاصقة بجبهة الآخر فكان لا بد من الفصل بينهما بالسلاح ، فكانت تلك مما زعموا أول عداوة بين بنى أمية وبنى هاشم إذ ذاك ثم بالغوا فى تصوير ما كان بين هاشم وابن أخيه ووضعوا فى ذلك كلاماً مزوَّراً كثيراً .

والحق أن عداوة بنى هاشم وبنى أمية إنما أخذت صورتها الدموية يوم بدر ، وقد تولى اثنان من أبطال بنى هاشم علىّ بن أبى طالب وحمزة بن عبد المطلب تحطيم بيت

(١) الطبرى ١/ ٢٥٣ .

أمية ، وهما معاً قضيا فى ذلك اليوم على نحو خمسة عشر من كبراء بنى أمية وأحلافهم ، فكانوا أحفل الناس بالمصيبة بعد بيت مخزوم الذى تحطم بصورة حاسمة يوم بدر . وعلىّ وحمزة لم يجتهدا هذا الاجتهاد فى ضرب بنى أمية لأنهما كانا يحملان ضغناً لبنى أمية وإنما كانا يحاربان فى سبيل الإسلام ويقضيان على خصومه ، وهما نظرا إلى ما فعلا يوم بدر على أنه جهاد فى سبيل الإسلام ونصر له ، وكذلك نظر إليه رسول الله ﷺ ، ولكن المصاب المكلوم ينطوى دائماً على الغيظ والحقد ، وأبو سفيان بن حرب الذى لم يحارب فى بدر سيتولى قيادة الجبهة المعادية للإسلام بدافع الرغبة فى الثأر لا غضباً لقريش وسيكون حقد بنى أمية على بنى هاشم ابتداء من يوم بدر نقطة من نقط الاختلاف الجوهرية بين طبيعة بيت بنى هاشم وطبيعة بيت بنى أمية وموقف كل منهم فى أمة الإسلام ، فالأولون أهل عقيدة ومبدأ ، والآخرون أهل عصبية وأحقاد قبلية تحولت بعد الإسلام إلى أحقاد سياسية .

قام المطلب بن عبد مناف بما كان يقوم به أخوه هاشم ، والمطلب وبنوه كانوا من أصغر بيوت قريش ، ولم يُعرف عنهم مال ولا ذُكروا بعلو المكانة فى قريش يوم ذاك . كان للمطلب أولاد كثيرون لم يظهر منهم إلا أبو الحارث عبيدة بن الحارث بن المطلب وهو من قدماء المسلمين ، أسلم قبل أن يدخل رسول الله دار الأرقم ويدعو فيها ، وكان أسن من رسول الله بعشر سنين ، ولم يكن فى المسلمين يومئذ من يكبر رسول الله فى السن إلا عبيدة هذا ، وقد أقامه الرسول على ثانى سرية أرسلها ، وهى السرية التى اتجهت إلى الطريق التجارى وتعرضت للعير التى كان فيها أبو سفيان . وتحاجز الحيان ولم يقع قتال إلا ما كان من رَمى سعد بن أبى وقاص بسهم يقال إنه أول سهم رُمِى فى الإسلام . وقد حضر عبيدة بن الحارث بدراً وجرح فيها ومات منصرفه منها . وقد أقطع الرسول بنى المطلب خطة فى المدينة بعد الهجرة واشتهر منهم ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب الذى صرعه رسول الله ﷺ والسائب بن عبد يزيد بن هشام مشهور عندنا لأنه الجد الأعلى للفقيه الكبير محمد بن إدريس الشافعى .

لا غرابة إذن أن يثقل عبء تراث هاشم بن عبد مناف على أخيه المطلب ، وغريب أن عبد شمس لم يتقدم ليحتل هذا المنصب الذى طلبه ابنه ، ومن الممكن أن يكون قد

مات بعد وفاة أخيه بقليل لأن سياق خبر موت هاشم يُفهم منه أن عبد شمس مات بعد موت هاشم مباشرة ، ولكن المطلب على أى حال تحمل هذا العبء حتى تنازل عنه لابن أخيه عبد المطلب بن هاشم . وهذا التنازل فى ذاته غريب لما نعلم من حرص العرب على المناصب مهما تواضعت ، فكيف بمركز كهذا هو أشبه برياسة - ولو شرفية مكلفة - لقريش كلها .

وليس هذا هو الأمر الغريب الوحيد فى سيرة عبد المطلب ، لأن قصته كلها أشبه بالأسطورة ، وخبره فى حفر بئر زمزم يُروى بالفعل فى صورة أسطورة من القصص الشعبى ، وعندما رواها د . طه حسين بأسلوبه البديع جعلها بالفعل على هامش السيرة كأنها - فى إحساسه - ليست من صلب السيرة .

ولكن جماعة رواتنا يروون القصة كلها وكأنها تاريخ صحيح ، ونحن هنا نتابعهم دون أن نعلّق على هذا القصص ، لأنه فى الحقيقة لا يمس لباب الموضوع لأن لبابه هو عبد المطلب نفسه وما فعل بعد أن صارت له الرفادة والسقاية ثم رياسة قريش بعد ذلك .

وأم عبد المطلب فيما يقال خزرجية من المدينة ، وهى سلمى بنت عمرو بن زيد من بنى غنم بن عدى بن النجار ، وهذا هو اسمها عند ابن حزم[1]، ويستوقف نظرنا أن ابن حزم عندما ذكر أنساب بنى عدى بن النجار لم يذكر سلمى فيهم ، كأنها كانت مذكورة فى أنساب قريش ولا ذكر لها فى أنساب الخزرج . وقد تزوج هاشم من خزرجية أخرى هى هند بنت عمرو بن ثعلبة من بنى غنم بن عوف بن الخزرج . ولم يجمع رجل من العرب فى نسائه التنوع الذى نجده فى نساء هاشم ، فها هو قد تزوج اثنتين من الخزرج ، وواحدة من بنى المصطلق من خزاعة ، وواحدة من بنى سعد من قضاعة ، وواحدة من بنى مازن بن صعصعة من قيس عيلان ، وواحدة من ثقيف ، فهؤلاء ست نساء أنجبن له أربعة ذكور وخمس إناث ، ولم يكن لهاشم من سلمى بنت عمرو الخزرجية هذه إلا ولد واحد هو شيبة ( الذى سيصبح عبد المطلب ) وجارية تسمى رقية ماتت صغيرة ، ولم يكن شيبة أكبر أبناء هاشم ، بل كان أكبرهم عَمْراً وأمه

(١) ابن حزم - جمهرة ص ١٤ .

هند بنت عمرو ، وهى الخزرجية الأولى ، وسلمى هى الثانية[1].

فكأن هاشماً التاجر السفار ، كان فى نفس الوقت مزواجاً يتزوج فى القبائل التى يتاجر معها ، ولا نجد بين نسائه قرشية .

وكان هاشم قد رأى سلمى فى السوق فى المدينة وهى تبيع وتشترى ، فأعجب بها وبجمالها ، وكانت - فيما يقول ابن هشام - « لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلاً فارقته[2]، فأنجبت منه ولداً هو شيبة ، وابنة هى رقية التى ذكرناها ، فتركه هاشم عندها فنشأ وكبر فى بنى عدى بن النجار الخزرجيين فى المدينة . وهذا هو السبب فيما يُذكر عادة فى كتب السيرة من أن بنى عدى بن النجار أخوال النبى ﷺ ، وهم ليسوا أخوالاً مباشرين له على الحقيقة ، وإنما هم أخوال جده عبد المطلب ، ولكن الأمر انسحب عليه ﷺ تجوزاً ، وأصبحت له أهمية خاصة فيما بعد ، أى بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ونزوله فى منازل بنى النجار ، ويبدو أن العلاقة اتصلت بين بنى النجار وبنى هاشم ، لأن عبد الله والد الرسول ﷺ أَلَمَّ بِهِم فى رحلته ، وعندهم توفى فى المدينة .

ونشأ شيبة فى المدينة فى كَنَف أمه ، فلما أصبح وصيفاً أى فى حوالى الثانية عشرة من عمره ، ظهرت منه نجابة وشفوف على إخوانه ، وكان يعرف أن أباه هاشم بن عبد مناف ، فلما بلغ المطلب ذلك قرر الخروج إلى المدينة ليأتى بابن أخيه حتى لا يشب بعيداً عن قوم أبيه ، وللقصاصين فى ذلك قصص وشعر كثير ، والمهم أن المطلب ذهب بنفسه وأتى بابن أخيه إما بموافقة أمه أو خلسة منها ، فلما عاد به إلى مكة أردفه خلفه على الناقة ، وصار إذا سأله الناس : من هذا معك ؟ قال . هذا عبدى يريد هذا مِلْكى ، ويقال إنه كان يقول : هذا عبد ابتعته بيثرب ، ومن هنا غلب عليه اسم عبد المطلب ، مع أنه لم يلبث أن صارحهم بأنه شيبة ابن أخيه عمرو - وهو هاشم - نشأ عند أخواله وذهب هو فأتى به حتى لا يشب غريباً عن قوم أبيه وهم قريش .

وشبَّ عبد المطلب ودخل مداخل الرجال وأصبح من شباب قريش الذين تتعلق بهم الآمال ، والنصوص لا تذكر لنا هنا كيف ولى عبد المطلب السقاية والرفادة بعد

---

(١) ابن الكلبى ، برواية ابن هشام فى السيرة ١/ ١٢ وبرواية النويرى فى نهاية الأرب ١٦/ ٣٨- ٣٩ .
(٢) ابن هشام ، السيرة ١/ ١٤٥ .

هاشم ، وكل ما تقوله هو أن عبد المطلب كان جسيماً وسيماً ، طوالاً فصيحاً ، ما رآه أحد إلا أحبه . قال الواقدى : وأقام عبد المطلب بمكة حتى أدرك ، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن ، فهلك بردمان من أرض اليمن ، فولى عبد المطلب بعده الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده وهو يطعم الحاج ويسقيهم فى حياض الأدم ( الجلد) حتى حفر زمزم ، فترك السقى فى الحياض وسقاهم من زمزم ، فكان يحمل الماء من زمزم إلى عَرَفة ، فيسقيهم والله أعلم»[1] .

ومن الآن فصاعداً سنلاحظ انعكاس صورة رسول الله ﷺ وخلاله - كما تخيلها الرواة - على جده عبد المطلب ، ومن هنا أيضاً إلى وفاة عبد المطلب سنجد صعوبة فى العثور على خيط التاريخ وسط فيض القصص والشعر الشعبيين ، وابن إسحاق هنا يفقد حاسته التاريخية ، فهو يحفن من القصص والشعر الشعبيين بكلتا يديه ويضع فى جعبة سيرته ، وقد تعرض بسبب ذلك لنقد كثير من خصومه ، ونقل عنه معظم ذلك ابن هشام، وربما زاد فيه، والنقاد هنا على حق، لأن هذا الفيض من القصص أضر فى الحقيقة بصلب التاريخ ، ومن أمثلة ذلك أن ابن إسحاق - برواية ابن هشام - يورد قصيدة فى رثاء المطلب بن هاشم يصوره وكأنه كان أغنى الناس وأنه كان ينفق من ماله العريض فى إطعام الحجيج وسقيهم ، ولم يكتف بذلك بل أضاف أن الشاعر الذى قال هذا الشعر بعد أن فرغ من شعره قيل له - واسمه مطرود - دون اسم أو كنية أو نسب غير هذا - لقد قلت فأحسنت ، ولو كان أفحل مما قلت كان أحسن ، فقال : انظرانى ليالى فمكث أياماً ثم قال ... ثم يورد نص قصيدة تتخطى الصفحات الثلاث[2].

والحقيقة أن عبد المطلب كان شاباً طموحاً وكانت له مواهب كثيرة أهمها بالنسبة لنا الآن هى قدرته على التعرف على مواضع الماء تحت الأرض وهى موهبة توجد عند قليل من الناس إلى يومنا هذا فى بعض رجال مناطق الصحارى، وفى النواحى المصابة بالجفاف ، وفى جنوب فرنسا وشمال أسبانيا إلى يومنا هذا رجال - معروفون بذلك يستدعيهم الناس للبحث عن مواقع الماء ليحفروا فيها ويجدوا الماء ، وقد اشتهر بذلك

(١) النويرى ، نهاية ١٦/ ٤٣ .
(٢) ابن هشام ، السيرة : ١/ ١٤٧ - ١٥٠ .

ناس فى إقليم أرتوا فى جنوب غرب فرنسا حيث تسمى الآبار بالارتوازية ، وعند العرب الجاهليين كان الناس يرون شيئاً من الكهانة والعلم فى الرجال الذين توجد فيهم هذه الملكة وكانوا عندهم موضع تبجيل وتقدير .

وعبد المطلب كان يتمتع بنصيب كبير من هذه الموهبة ، وإليه تنسب آبار كثيرة فى مكة وفى الطرق إليها ، تعرف على مواضعها وحفرها بنفسه ووهبها لقومه ، فكان ذلك من ممهدات رياسته .

غير أن عمله الأكبر فى ذلك المجال هو حفر زمزم ، والنصوص تقول هنا إنه رأى فى منامه طائفاً يأمره بحفر زمزم ويحدد له مكانها فى الحِجْر بين صنمين لإساف ونائلة ، فذهب مع ابنه الوحيد إذ ذاك وهو الحارث - وهذا يدل على أن عبد المطلب كان شاباً فى ذلك الحين ولم يكد يحفر إلا قليلاً حتى ظهر «الطى» وهو كنز فيه تمثالا غزالين من ذهب وسيوف - كانت فيما يقال لـجُرْهم ، فلما اضطرت جُـرْهم لمغادرة مكة رموا هذا الكنز فى بئر زمزم وطموها . ونحن نقول : إن أخبار ما فعلته جرهم لابد قد وصلت عبد المطلب فقرر الحفر عنها ، وكان من قبله يتهيبون ذلك ، لأن موضع زمزم كان بين صنمين لإلهين من آلهة العرب ، ولكن عبد المطلب كان شاباً واسع الذهن باسلاً لا يخاف ، فتحدى قريشاً كلها وحفر موضع الطى، ووجد الكنز ثم استمر يحفر حتى كشف عن ماء زمزم .

وهذا العمل كان كبير الأثر فى تاريخ عبد المطلب ، فقد رأوا حسن طالعه بكشف الكنز ودقة علمه بالعثور على أكبر آبار مكة ، فَعَلت مكانته بين الناس، وأحسن هو التصرف ، فضرب بعض الذهب صفائح حَلَّى بها أبواب الكعبة ، ونازعته قريش فى ملكية بئر زمزم ، فأثبت لهم سعة علمه وحُسن طالعه وحفر بئراً أخرى فى موضع مفازة معطشة كانت قوافلهم تسير فيها [1] فثبت لهم امتيازه، فاعترفوا له بحقه فى ماء زمزم ، فلما اطمأن إلى ذلك جعل ماءها مشاعاً بين الناس ، وأخذ يسقى الحجيج منها ، وكانت زمزم أكبر عين فى مكة وأحسنها ماء ، فلم يبق فى مكة من ينازع عبد

(١) ابن هشام ، السيرة : ١/ ١٥٢ - ١٥٣ .

المطلب الشرف والرياسة ، وتولى الرفادة والسقاية وأصبحت له فى مكة مكانة تشبه مكانة أبيه هاشم وجده قصى .

وكانت معرفة عبد المطلب بمواضع المياه جانباً مما امتاز به من الميل إلى الدين والكهانة ، فلما فتح الله عليه هذا الفتح اتجه ببعد نظره إلى الحج واهتم بمناسكه فنظمها بالاشتراك مع بقية القرشيين ووضع نظم الحج التى أعطت بيت عبد المطلب مكانة رفيعة بين قريش وانتفع القرشيون بملكاتهم التجارية فى تحويل مناسك الحج إلى مَصْدَر قوة ورزق عظيم وكسب لهم .

وقد كانت فى مكة آبار قليلة حفر بعضها رجال قريش بعد استقرارهم فيها ، ولكنها كانت آباراً صغيرة تختص بالواحد منها القبيلة الواحدة وتملكها ، فكانت لبنى عبد شمس بئر تسمى الطَّوِىّ ، وكانت بأعلى مكة عند البيضاء ، وحفر هاشم بن عبد مناف بئر بدر على فم شِعب بنى طالب ، وكان هاشم قد جعلها للناس كلهم ، وحفر أمية بن عبد شمس لنفسه بئراً تسمى الحفر ، وحفر بنو أسد بن عبد العُزَّى بئر سُقْيَة ، وحفر بنو عبد الدار بئر أحراد ، وسيحفر المطعم بن عدى بئر سجله. ولابد أنه كانت فى الموضع قبل ذلك آبار أخرى ، وإلا فكيف كان موضع مكة مسكوناً منذ الزمن القديم؟ ولكن هذه الآبار كلها كانت صغيرة لا تكفى الواحدة منها إلا النفر القليلين ، فلما اكتشف عبد المطلب موضع زمزم وأعاد حفرها حظى البلد بمصدر ماء غزير فاتسعت أمام أهلها سبل العمران ، واستطاعوا أن يمدوا باعهم فى العناية بالحجاج بسقيهم الماء الوفير ، ولهذا تعد إعادة حفر زمزم على يد عبد المطلب خطوة كبيرة نحو نهوض مكة فى ظل قريش .

وكذلك كان القرشيون قبل دخولهم مكة قد احتفروا آباراً بمنازلهم خارج البلد منها بئر ترجع إلى أيام مرة بن كعب وكلاب بن مرة ، وإلى كلاب بن مرة أيضاً تنسب بئر خم ، وهى المشهورة باسم غدير خُم ، وحفروا بئراً أخرى تسمى الحَفر، وكان ذلك قبل دخولهم مكة كما قلنا[1].

ونسترسل بعض الشىء مع القصص الشعبى فنقول : إن عبد المطلب نذر لله أنه

(١) ابن هشام ، السيرة : ١/ ١٥٧ - ١٥٨ .

إذا أعطاه عشراً من البنين يقفون معه ويعز بهم أمره لينْحَرن آخرهم للكعبة ، وبالفعل رُزِق تسعة أبناء آخرين غير الحارث ، وكان آخرهم عبد الله والد الرسول ﷺ، وكان هو وأخوه الزبير شقيقين ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بنى مخزوم بن يقظة، فلما أراد تقريبه لهبل إله قريش - وكان صنمه فى جوف الكعبة - قامت قريش تعترض عليه مخافة أن يصبح نحر الولد وفاء بنذر عادة جديدة يجرى عليها القرشيون ، وكان أشد الناس اعتراضاً بنو مخزوم ، لأن عبد الله ابن أختهم ، واتفق أمرهم على أن يسألوا فى الأمر امرأة عرَّافة بالحجاز كانت تسكن بالمدينة ، لأن مكة فى تهامة ، فذهبوا إليها فوجدوها فى خيبر لبعض شأنها ، فذهبوا إليها واستشاروها فطلبت إليهم أن يُنظروها يوماً حتى يأتيها تابعها .

فلما جاءوها من الغد قالت لهم إن تابعها قد أتاها وأفتى بأن يضرب عبد المطلب بالقداح ، فإذا خرج القدح على ابنه عبد الله زاد فى دية الدم عشرة من الإبل ، وكانت الدية عشرة من الإبل حتى ذلك الحين ، ففعل عبد المطلب وما زال يزيد الإبل عشراً كل مرة حتى بلغت الدية مائة من الإبل، ثم خرج قدح الإبل ففرح عبد المطلب بنجاة ولده وأصبحت دية الرجل من ذلك الحين - فيما تزعم القصة - مائة من الإبل، وإنما استرسلنا مع هذه القصة لنرى كيف كان القرشيون فى ذلك الحين يلجأون إلى الكواهن والعرافين والعرافات فى كل ما أهمهم من الأمر، وقد ذكر محمد بن حبيب النسابة فى كتاب « المنمَّق فى أخبار قريش » أمثلة كثيرة من هذا النوع .

ونظر عبد المطلب بعد أن صارت له الرفادة والسقاية والندوة فى أمر الكعبة فوجد أنها محج العرب ، يجتمعون فيها للحج والتجارة بعد الأسواق ، ولاحظ أن العرب حريصون على الحج إلى هذا البيت ، ثم إن مناسك الحج كانت موزعة بين أيدى قبائل مختلفة ، فهناك قبيلة تسمى صوفة كانت تنزل بناحية عرفات وتشرف على إقامة الحج من هناك ، ويقال : إن صوفة من فروع إلياس بن مضر ويقال أيضاً : إن صوفة من بقايا جُرْهم ، ولكن الغالب أنها من قيس عيلان بن مضر، وكانت جماعة من بنى عَدْوان من قيس عيلان ضاربة بناحية مُزْدَلِفة ، فكانت تشرف على أمور الحجيج عند مزدلفة . ثم إن صوفة كانت تأخذ بمخرج الحجيج من مِنى بعد انتهاء الحج فلا ينطلق

أحد إلا بإذنها ، فضاق الناس بأمرها ، فرأى عبد المطلب أن يجمع ذلك كله فى يده ، فاتفق مع خزاعة وغيرها من القبائل هناك على أن يتولى هو وبنوه بالاشتراك مع خزاعة الإشراف على شئون الحج كلها .

وقد ذكرنا أنه كان قد ساد منطقة الحرم بمكة بما كان ينفق على الحجيج من ماله فى الرفادة والسقاية وراحة الحجاج ، هذا بالإضافة إلى ما كان له من رياسة دار الندوة ، وهى مجمع القرشيين ودار شوراهم ، لا يقررون أمراً من أمورهم إلا فيها ، بل كانوا يعلنون فيها بلوغ البنات أى وصولهن إلى سن الزواج، وفيها كانت تعقد الأنكحة، وإذا أرادت قريش أن تتخذ قراراً بالحرب كان ذلك فى دار الندوة ، وفيها يعقد اللواء ، أى لواء الحرب ، وذلك كله كان يكلف عبد المطلب مالاً كثيراً ، فلما عرض عليهم أمر تنظيم الحج وافقوه ، وقام بتنظيم أمر المناسك والمواقف فى عرفات ومزدلفة ومِنَى وحراسة الطريق من العقبة وهى الجمرة الصغرى حتى مكة .

وفى هذا الموضع كانت تنزل بعض بطون كنانة فى المساحة المعروفة بالمُحَصَّب وتعرف أيضاً بخيف كنانة أو بطحاء مكة، فنظم عبد المطلب أمر ذلك كله بالاشتراك مع القبائل الضاربة فى كل موضع، وكان عبد المطلب ذكياً فكان لا يدخل فى نزاع مع قبيلة ما دام يصل فى النهاية إلى ما يريد وهو الإشراف الأعلى ، فتم له ما أراد - وضبط أمور الحج وقدم للحجاج الماء فى عرفات ومزدلفة ومنى على النحو الذى كان عليه الحج قبل الإسلام ، وهو قريب مما صار عليه بعد الإسلام كما نرى فى كتاب الأصنام للكلبى ، والفرق الجسيم هنا هو أن الحج قبل الإسلام كان إلى الكعبة والأوثان التى وضعتها القبائل حول الكعبة ويقال : إن عددها كان ثلاثمائة وستين صنماً ، أما بعد الإسلام فقد أصبح الحج لبيت الله .

والغالب أن عبد المطلب هو الذى جعل كل قبيلة تضع عند الكعبة صورة من وثنها أو معبودها حتى تحج إليه عند إلمامها بمكة فى الموسم ، وكانت كل قبيلة لها صنمها فى منازلها أو قريباً منها ، وكانت تطوف به وتقوم بطقوس معينة خاصة بها كما نرى فى كتاب الأصنام للكلبى ، فكانت فكرة عبد المطلب فى وضع صور من تلك

الأوثان أو رموز لها حول الكعبة فكرة صائبة ، فصار الحج إلى الكعبة حجاً لقبائل العرب جميعاً بعد انتهاء الأسواق فى ذى الحجة من كل عام ، وإن كان هناك ما يدل على أن بعض القبائل كانت تحج فى ذى القعدة ، فعلا أمر عبد المطلب وازداد جاه قريش نتيجة لذلك ، وانضاف إلى عناصر قوتها عنصر الدين بالإضافة إلى التجارة وحسن السياسة والاجتهاد فى كسب ود القبائل مما كان قصى وابنه عبد مناف قد حققاه على ما ذكرناه ، وبذلك يكون عبد المطلب قد خطا الخطوة الحاسمة فى بناء مجد مكة وجاهها بين القبائل .

وأظن أن هذا هو الذى أراده ابن إسحاق عندما قال بعد كلامه عن إنشاء عبد المطلب لدار الندوة قرب بيته وإشرافه على ما كان يتقرر أو يعمل فيها ، «فكان أمره فى قومه من قريش فى حياته ومن بعده كالدين المتبع لا يعمل بغيره ، واتخذ لنفسه دار الندوة ، ففيها كانت قريش تقضى أمورها» [1]. وفى موضع آخر يقول ابن إسحاق : «ثم ولى عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف فى قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم »[2] .

ولكن قريشاً - كما سنرى - أدخلت شيئاً من التغيير فى هذا النظام - ربما فى أواخر أيام عبد المطلب وكان ذلك لأسباب تجارية فى الغالب ، والمهم لدينا أن عبد المطلب أكمل بناء قوة قريش بما نظمه من أمور الحج ، فازداد إقبال الناس على مكة فى الموسم. وعرفت قريش كيف تفيد أعظم الفائدة من التجارة ومن الدين معاً ، هذا بالإضافة إلى ما كان القرشيون قد أضافوا إلى قوة بلدهم ، كل بحسب ما استطاع .

وقد عُمِّر عبد المطلب طويلاً ، فيقال إنه توفى عن اثنتين وثمانين سنة ، وكانت سن رسول الله ﷺ إذ ذاك ثمانى سنوات ، إذ أن عبد المطلب حضنه أى أخذه فى رعايته بعد وفاة أمه السيدة آمنة بنت وهب ، قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ينبته نباتاً حسناً لما يريد

(١) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٣٢.
(٢) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٥٠.

به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب بالأبواء، بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله بنى عدى بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهى راجعة به إلى مكة. قال ابن هشام : «أم عبد المطلب بن هاشم سلمى بنت عمرو النجَّارية ، فهذه الحئولة التى ذكرها ابن إسحاق لرسول الله ﷺ[1]» فانفرد عبد المطلب برعاية رسول الله ﷺ . وظل الرسول برعاية عبد المطلب سنتين حتى توفى عبد المطلب، جاء فى النويرى : «وكانت وفاة عبد المطلب بن هاشم لثمان سنين من عمر رسول الله ﷺ بالحَجون وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، وقيل ابن مائة وعشر سنين ، حكاه السهيلى قال : وهو أول من خضب بالسواد من العرب[2] » وقد رجعنا إلى نص السهيلى فوجدناه يقول إن عبد المطلب توفى عن مائة وأربعين سنة ، ولم نجده يعتمد على شىء يعول عليه وقد نقل ذلك الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية ولا سند له كذلك ، وفى السيرة الحلبية أقوال أخرى .

فإذا أخذنا بأقرب هذه الأقوال إلى الاحتمال قلنا إن عبد المطلب إذا كان قد توفى وَسِنُّه ٨٢ سنة ، فتكون وفاته قد وقعت سنة ٥٧٩م . لأن رسول الله وُلد سنة ٥٧١ م وكانت سنة ثمانى سنوات عند وفاة عبد المطلب ، ويكون عبدالمطلب قد ولد سنة ٤٨٧ ميلادية على وجه التقريب . وتولى رياسة قريش فى الغالب بعد ذلك بحوالى ٢٥ سنة ، لأنه لم يكن له من الولد عندما حفر زمزم إلا الحارث ، أى أنه -أى عبد المطلب- كان إذ ذاك شاباً وابنه الحارث كان يعاونه وهو بعد غلام فى العاشرة مثلاً، ومعنى ذلك أن عبد المطلب عندما حفر زمزم كان فى الثلاثين من عمره إذا سرنا مع أقرب التصورات إلى الاحتمال ومن الممكن أن نقول إنه تزوج فى السادسة عشرة لكى ينجب ويصبح ابنه فى العاشرة وهو فى السادسة والعشرين من عمره والفرق قليل على أى حال .

## تحقيق فى تاريخ عَام الفِيل :

وهذا الذى نقوله يدعونا إلى أن نحاول تحديد عام الفيل ، والرأى عند مؤرخينا أن عام الفيل كان عام ولادة الرسول ﷺ ، وهو مستبعد لأن عام الفيل على هذا القول

(١) ابن إسحاق ، برواية ابن هشام ١ / ١٧٨ .
(٢) انظر السهيلى ، الروض الأنف ١/ ٥ . وشرح المواهب اللدنية للزرقانى ١/ ١٨٩ . والسيرة الحلبية ١/ ١١٢ .

كان وسِنّ عبد المطلب ٧٤ سنة على الأقل ، وإذا تابعنا قول الزرقانى فى المواهب من أن عبد المطلب توفى وسِنُّه ١٠ سنوات فأكثر فيكون عام الفيل كان وسن عبد المطلب ١٠٢ سنة ، لأن عبد المطلب مات وسِنُّ رسول الله ثمان سنوات أى سنة ٥٧٨ ميلادية.

وقد استبعدنا أن يكون عام الفيل هو عام مولد رسول الله لأن عبد المطلب لابد أن تكون سنه فى هذه الحالة إما ٧٤ عاماً أو١٠٢ من الأعوام، وسنرى بعد قليل أن غزو أبرهة للحجاز لابد أن يكون قد وقع وسِنّ عبد المطلب أقل من ذلك بكثير وواقع الحال أن غزو أبرهة - وهو ابراهام - للحجاز كان وعبد المطلب شاب .

وأراجع مع القارىء تفاصيل ما وقع لأبرهة فى الحجاز لعلنا نستطيع تقدير سن عبد المطلب على وجه التقريب إذ ذاك ، فإن أبرهة عندما أزمع المسير إلى الحجاز لهدم الكعبة بعد أن بنى القليس[1] وهى كنيسة نجران. وكان رجل من أهل اليمن يسمى ذا نعز قد تعرض لجيش أبرهة فانهزم وأُسِر وحمله أبرهة معه ، وقصد أبرهة الطائف ليهدم صنم مناة بها حاسباً أنه الكعبة ، ولكن الثقفيين يرشدونه إلى كعبة مكة ، ويتطوع رجل يسمى أبا رعال أو أبا رغال ليكون دليل الأحباش ، وقد مات أبو رعال قرب مكة فرجمت العرب قبره .

والأخبار التى لدينا عما كان بين أبرهة وعبد المطلب وكذلك ما دار بينهما من الحديث لا تدل على أن عبد المطلب كان شيخاً مسناً فى السبعينات أو الثمانينات من عمره ، ونحن نتكلم هنا عن عصور بعيدة كان الرجل فيها إذا بلغ الخمسين أصبح شيخاً .

يقول الخبر الذى يرويه ابن إسحاق عن هذه الغزوة : إن أبرهة عندما اقترب من

---

(١) تركت لفظ القليس دون شكل ونصوصنا تشكله هكذا : القُلَيْس وهو فيما نظن خطأ لأن القليس كان كنيسة ، والكنيسة فى اللاتينية واليونانية Ecclesia (اكليسيا) وهذا قريب من رسم قِليس إذا نحن شكلناه هكذا وهو المعقول هنا . وفى بلاد الشام يذكر العرب أماكن كثيرة اسمها القِليس أو القلس، وكلها تعريبات للفظ اكليسيا ، ومن هذا القبيل أيضاً ما تقوله النصوص من أن اسم الفيل الذى كان مع أبرهة محمود وهذا مستغرب لأن أبرهة لم يكن ليعطى فيله الذى أتى به من الحبشة اسم محمود . ولكن هذا اللفظ قريب من اسم لاتينى للفيل الكبير momoth وهو الفيل الوحشى الكبير ، أما الاسم الذى عرف به اليونان الفيل المستأنس الذى نعرفه فهو el-ephant وهو اسمه فى اللغة المصرية القديمة ، ومن المعروف أن اليونان أول ما عرفوا الفيلة كان فى جنوب مصر عند جزيرة الفيلة وهى إلفانتاين .

مكة وصل موضعاً يسمى المغمِّس ، ومن هناك بعث رجلاً من قواده يسمى الأسود ابن مقصود فاجتاح نواحى مكة بخيله ، وساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدهم ، فهمَّتْ قريش وكنانة وهذيل ومن كان بهذا الجزء من سائر الناس بقتاله ، ثم عرفوا ألا طاقة لهم به فتركوا ذلك. ثم أرسل أبرهة رسولاً يسمى حناطة الحميرى إلى مكة وكلفه بأن يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ويقول له : إن أبرهة لا يريد قتالهم ويأتيه بكبير القوم ، وتحدث حناطة الحميرى إلى عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب : «والله ما نريد حربه وما لنا بذلك طاقة . هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - أو كما قال - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يُخل بينه فوالله ما عندنا دفع عنه - فقال له حناطة : فانطلق معى إليه ، فإنه أمرنى أن آتيه بك».

وانطلق عبد المطلب مع حناطة للقاء أبرهة ، وكان معه بعض بنيه مما يدل على أن ذلك وقع فى منتصف حياته بعد أن أصبح له من الأبناء عدة ، ولو كان عبد المطلب طاعناً فى السن كما يفهم من النصوص التى تقول إن غزو أبرهة للحجاز كان عام مولد رسول الله ﷺ لما سار معه ليكلمه فى أمر مائتين من الإبل ، واكتفى بإرسال بعض بنيه .

ووصل عبد المطلب إلى معسكر أبرهة وسأل عن ذى نَعْز اليمنى الذى كان أسيراً فى جيش أبرهة وسأله إن كان يستطيع معاونته ، فقال ذو نَعْز : إنه أسير لا يستطيع شيئاً ، ولكن له صلة بسائق فيل أبرهة واسمه أُنَيس ، وأنه يستطيع سؤال أنيس أن يتوسط لدى أبرهة ليأذن لعبد المطلب فى لقائه ليكلمه فى أمر المائتى ناقة التى استاقها جيش أبرهة فوعده أنيس بذلك وأدخله على أبرهة . وهذا الموقف المتطامن جداً من عبد المطلب لا يدل على أنه كان على قدرٍ عظيم من المكانة ، ثم إنه عندما لقى أبرهة لم يطلب منه إلا المائتى بعير التى استاقها جنوده ، وهو لم يطلب من أبرهة مثلاً أن يرد ما استاق جنده من إبل غيره من القرشيين وأموالهم ، وهو يتكلم عن نفسه لا عن قريش أو مكة ، بل هو لا يسأل أبرهة أن يرد أموال حلفاء قريش من خزاعة والأحابيش ولو

أن عبد المطلب كان إذ ذاك سيد قريش كلها وأكبر شخصيات مكة لطالب بأموال قومه وحلفائهم ، هذا فضلاً عن أنه لم يقل شيئاً عن الكعبة وحرمها والمفروض أن عبد المطلب كان سادنها والقائم بأمرها ، وكان المفروض أن يذكرها ولو مجرد ذكر ويجتهد فى دفع الضرر عنها.

ولكن الذى ذكر البيت كان أبرهة ، فقد أدهشه أن يقال له إن عبد المطلب كبير قريش وسيد البطحاء وسادن الكعبة ثم نجده يتخلى عن مسئوليته ولا يكون له هَمّ إلا نُوقه التى غنمتها قوات أبرهة ، وسأله فى ذلك، فكان رده «إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه» ويقول أبرهة : «ما كان ليمتنع منى» ويرد عبد المطلب : «أنت وذاك».

ويستوقف النظر أنه فى حين أن عبد المطلب تخلى عن البيت لأن له - فيما قال - رباً سيحميه . تقدم رئيسان عربيان آخران هما معمر بن نفاقة بن عدى سيد بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وخويلد بن واثلة الهذلى سيد هذيل «فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليهم». يقول ابن إسحاق : والله أعلم أكان ذلك أم لا . فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصاب له. فلما انصرفوا عنه انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعب الجبال[1] تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُـمَّ إنَّ الـعبـد يَـمْـ ـنَـعُ رَحْلَهُ فَامنَعْ حَلالَكْ

لا يغلـبنَّ صَلِيبهُـمْ ومِحالُهُـم غَـدْرًا مِحَـالَكْ

وأصحاب السيرة يسوقون الخبر هذا المساق تمهيداً لما كان من هلاك جيش أبرهة بالطير الأبابيل التى ترمى بحجارة من سجيل كما قال الله سبحانه فى سورة الفيل . والقرآن هو الحق فيما قال ، ولكن أصحاب السير ليسوا على حق أو منطق فيما ذهبوا إليه.

---

(١) أى : فى رؤوس الجبال وأطوائها.

لأن عبد المطلب لم يكن نبياً أو رسولاً أو يعلم الغيب حتى يكون على ثقة مما سيحدث لجيش أبرهة ، بل هو كان رجلاً وثنياً يقف فى مواجهة رجل مسيحى هو أبرهة أو أبراهام ، وأبرهة لم يكن يريد هدم البيت لأنه بيت الله الحرام الذى بناه إبراهيم عليه السلام فما كان له بذلك علم ، ولو علمه وأيقن به لما فكر فى هدمه وهو المسيحى الذى يعرف عن إبراهيم عليه السلام أحسن مما يعرف عبد المطلب - وفى العهد القديم - ولابد أن يكون أبرهة على علم به إذا كان مسيحياً تقياً يبنى الكنائس كما تقول النصوص . وليس من المعقول أن رجلاً يبلغ به الإخلاص للمسيحية أن يبنى كنيساً فى نجران ثم يُقْدم على هدم بيت بناه نبى الله إبراهيم الخليل ، ولكن أبرهة أتى ليهدم بيتاً قيل له إنه رمز الوثنية ومجمع الأوثان .

ولكن رواتنا يسوقون الأخبار ويريدون منا أن نفهمها على طريقتهم ، وروايتهم للأخبار كما رأينا سقيمة لا تستقيم مع المنطق وتفسيرهم لها ساذج.

والذى نستطيع قوله - متمشين فى ذلك مع ما جاء فى القرآن الكريم - وهو قول الحق الوحيد فى هذا المقام - هو أن أبرهة كان ملكاً يوسع ملكه ، ويريد أن يدخل الناس جميعاً فى دينه ويصلوا فى الكنائس فأحب أن يقضى على ذلك المحج الوثنى فى رأيه دون أن يعلم أنه بيت الله الذى بناه إبراهيم عليه السلام ، فرده الله سبحانه عن ذلك بما أرسل على جيشه حفاظاً على بيته المكرم .

والمهم لدينا هنا أن عبد المطلب أوان هذه الغزوة لم يكن قد أصبح سيد قريش أو سيد البطحاء أو أكبر رجل فى تهامة ، إنما كان سيداً من سادات قريش إذ كان فى تهامة إذ ذاك سادات عرب آخرون أكبر منه وأقوى ، منهم سيد بنى بكر بن عبد مناة ابن كنانة وسيد هذيل ، وهما اللذان تقدما لإنقاذ البيت من التدمير فعرضا ثلث أموال - تهامة ، وهو أمر لم يستطع عرضه - ولا عرض جزء منه - عبد المطلب لأنه بحسب استنتاجنا من النصوص كان لا يزال يبنى مركزه ومكانته . وقد وصل إلى الرفادة والسقاية وسدانة الكعبة بعد ذلك وإنشاء دار الندوة لكى يشترك مع بقية رؤساء قريش فى إكمال عمل قُصى وعبد مناف وهاشم مما جعل مكة أكبر مركز مالى دينى حضارى فى الحجاز أولاً ، ثم الجزيرة كلها بعد ذلك.

وهذا كله وصل إليه عبد المطلب فيما بعد ، وعندما أتم عمله هذا كان قد وصل إلى الشيخوخة وأصبح بمواهبه التى ذكرنا بعضها سيد قريش وصاحب المكانة الرئيسية فى مكة ، وهنا - وهو يقترب من الثمانين - وُلِد رسول الله ﷺ ، وكانت قد مضت على عام الفيل سنوات طوال.

وقد تتبعنا هنا الأخبار كما يرويها أوثق مؤرخينا فيما يتصل بهذا الحادث والسيرة النبوية وتاريخ قريش قبل الإسلام ، أما ما يرد بعد ذلك فى تاريخ مكة للأزرقى وفى تفاسير المفسرين فقد جاء كله بعد ذلك وهو قد أوغل فى القصص الشعبى من بعض تفاصيل ابن إسحاق . وقد تتبعنا رواية هذا الأخير والتزمناها بغاية الدقة والتزمنا كذلك المنهج التاريخى الدقيق فى تفسيرها والاستخراج منها ، فخرجنا بغير النتيجة التى قدروها . ولا تعارض مع عاطفة أى مسلم - فيما أظن - أن يقال إن رسول الله ﷺ لم يُولد فى عام الفيل ، وإنما بعده بثلاثين سنة على أقل تقدير[1].

## قُريش فى أوج قوتها قبل الإسلام :

نجت مكة وحرمها من التخريب على أيدى أبرهة بفضل الله سبحانه وعادت قريش تواصل صعودها ، لأن أبرهة بن الصباح عاد إلى اليمن ببقايا جيشه ولم يحاول غزو الحجاز مرة أخرى ، واستتم حكمه ٢٣ سنة وخلفه ابنه يكسوم أو يقسوم فحكم ١٩ سنة ثم خلفه مسروق فحكم ١٢ سنة .

وفى نهاية حكم مسروق نهض من أمراء حمير رجل يسمى سيف بن ذى يزن واستطاع أن يتغلب على الأحباش بمعاونة كسرى فارس الذى أرسل إلى اليمن قائداً من قواده يسمى وهذر عاون سيف بن ذى يزن على التخلص من سلطان الأحباش ،

---

(١) ابن إسحاق ، السيرة برواية ابن هشام ١/ ٤٤ وما بعدها - الأزرقى ، أخبار مكة ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسى بتحقيق فستنفلد فى كتابى : Wüstenfeld, Chroniken der Stadt mekka الجزءان الأول والثانى . وقد فضلت الرجوع إلى هذه الطبعة على طبعتى القاهرة للكتابين لأنها أصح وأدق ، وسيرة ابن هشام فى المواضع المشار إليها آنفاً ، وانظر فهارس الأغانى طبعة بولاق الذى عمله المستشرق جويدى - وترجمه محمد مسعود ، لأن الطبعات المصرية للأغانى لا فهارس لها ، والعقد الفريد . طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - وآخرين ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ، الجزء الأول بتحقيق محمد حميد الله ، طبعة دار المعارف ، وتاريخ اليعقوبى طبعة بيروت ، والبكرى معجم ما استعجم بتحقيق مصطفى السقا : المقدمة ومواد مكة والحجاز وتهامة ، وانظر كذلك : Henri Lammens . La Mécque à la veille de l'Hégire Beyrouth 1910 .

ثم عاد إلى بلاده بعد أن اطمأن كسرى إلى أنه أبعد الأحباش حلفاء الروم عن اليمن .

وبعد أن استتب الأمر لسيف بن ذى يزن قضى على بقية الأحباش وأعاد سلطان حمير ولكن الحميريين لم يعودوا إلى سابق قوتهم قبل أن يغزو الأحباش بلادهم واقتصر سلطانهم على صنعاء ، أما بقية نواحى اليمن ومحافدها فقد استبد بالأمر فى كل منها رجل من الأذواء جمع « ذو » وهو السيد أو صاحب السلطان وتلك هى نهاية الطبقة الثانية من ملوك حمير التى يذهب المؤرخون أنها انتهت فى حدود ٥٣٣ ميلادية أى فى نحو العصر الذى نتكلم عنه [١] . وكل هذه الأحداث وقعت قبل ميلاد الرسول ! ثم يصرون بعد ذلك على أن الرسول وُلِد عام الفيل !

وقد كانت دولة سبأ القديمة فى اليمن دولة حضارة وتجارة ، وإليها يرجع الفضل فى فتح طرق التجارة مع الهند والصين وشرق أفريقية وإنشاء أسواقها ، أما دولة حمير التى جاءت بعدها وبدأت حكمها سنة ١٢٥ ق . م . فقد كانت دولة حروب وفتوح ، وقد طالت أيامها وابتُلِيَتْ اليمن فى عصر الطبقة الثانية من ملوكها بالتدخل الحبشى الذى أشرنا إليه ودخول المسيحية ، وما أدى إليه ذلك من محاولة أبرهة بن الصباح غزو الحجاز لهدم الكعبة . وفى ذلك العصر تراخت أمور التجارة اليمنية ، ثم توقفت طرق التجارة من آسيا إلى بلاد الدولة البيزنطية عن طريق وسط آسيا ، فاشتدت حاجة الأسواق فى بلاد الشام وبقية بلاد دولة الروم وهى الدولة البيزنطية إلى بضائع آسيا وأفريقية وما كانت - نواحى جنوب جزيرة العرب تخرجه من حاصلات مطلوبة فى الأسواق مثل الصمغ واللبان والمُرّ والزباد وهو عطر يستخرج من نوع من القطط البرية لا زال بعضها يعيش إلى اليوم فى جزيرة سُقُطرى .

وتلك هى الظروف التى انتفع بها هاشم بن عبد مناف وإخوته فى الدخول بالتجارة المكية فى عصرها الزاهر ، فذهب اثنان من إخوة هاشم إلى الحبشة واليمن وعقدا العصم مع ملوك الحبشة والحميريين فى اليمن والإيلاف مع القبائل العربية على الطريق من اليمن إلى مكة ، فاكتمل بذلك طريق التجارة من اليمن إلى الشام ، وانتظمت رحلتا الشتاء والصيف المذكورتان فى القرآن الكريم ، ومما يستلفت النظر

(١) انظر : موجز تاريخ اليمن فى كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجى زيدان وتعليقنا عليه ص ١٣٦ - ١٤٤ .

إلى معجزات ما فى القرآن الكريم أن سياق سورة قريش يدل على أن مرحلة تنظيم الأمور الدينية كان بعد الإيلاف أى تنظيم التجارة ، ومن المعروف أن وثنية قريش كانت لا تنكر أن الكعبة بيت الله وأنه سبحانه خالق السماوات والأرض ولكنهم أشركوا آلهتهم مع الله سبحانه فى العبادة ، فقالوا : إن آلهتهم بنات الله وإنها وسطاء بينهم وبين الله وأنهم يعبدونها زلفى . وإليك سورة قريش لنقرأها ونفهمها على ضوء الحقائق التاريخية :

﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ① إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [ قريش ] فإيلاف قريش سابق هنا على رحلتى الشتاء والصيف وهما مصدر الخير الذى أطعمهم بعد جوع وآمنهم من خوف وكان عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت سبب تلك النعمة التى جاءتهم ولكنهم لم يعبدوه خالصاً وأشركوا به ، وهذا هو التنظيم للوثنية العربية الذى أدخله عبد المطلب وسماه ابن إسحاق دين عبد المطلب ، ثم جاء محمد ﷺ ليُظهر دين الله الذى أدخله إبراهيم عليه السلام إلى الحجاز ثم تناساه العرب - وأدخلوا فيه وثنيتهم وآلهتهم فصار شركاً بالله ، جاء محمد صلوات الله عليه ليزيل دين عبد المطلب ويُحل دين الله محله .

وجدير بالتأمل أن محمداً الذى بعثه الله ليزيل دين عبد المطلب كان حفيده وأحب الناس إليه وتربى فى كنفه وقضى السنتين الأخيرتين من حياة عبد المطلب فى حجره ، وكان عبد المطلب لا يحب أحداً من بنيه وحفدته حبه لمحمد ﷺ ، وكأنما كان رسول الله وهو بَعْدُ بين الطفولة والصبا يشعر بذلك . قال ابن إسحق : « وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا حتى يخرج إليه ، لايجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له . وكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً ثم يجلسه معه عليه ، فيمسح ظهره ويسره ما يراه يصنع »[1] .

(١) ابن إسحاق ، برواية النويرى ، نهاية الأرب ١٦/ ٨٨ .

ويريد ربك سبحانه أن يكون هذا « الشأن » هو إزالة دين عبد المطلب وإحياء دين جده إبراهيم أبى الأنبياء وأول المسلمين ، وفى نشأة رسول الله ﷺ فى كنف عبد المطلب ملامح من نشأة موسى فى كنف فرعون ، وتلك آيات من إعجاز الله فى خلقه وقرآنه وتعريفه لشئون عباده ، سبحانه لا رب سواه .

ونعود إلى ما وقفنا عنده من تاريخ عبد المطلب فنقول إنه واصل عمله بعد انصراف أبرهة ونجاة مكة من مَعَرة الجيش كما يقول ابن إسحاق ، ولا شك أن مَهَابة البيت زادت فى قلبه بعد الذى رأى من عظيم صنع الله ، ولكنه استمر وثنياً مشركاً على ما كان عليه هو وقومه ، يعرفون أن الله خالق الكون ولكنهم يشركون معه سبحانه آلهتهم وأكبرهم هبل ، وفيهم إناث مثل نائلة ومناة والعُزَّى يسمونهن بنات الله ويستشفعون بهم وبهن عند الله ، ولا شفاعة لأحد عند الله إلا بإذنه وبمشيئته ورضاه كما ورد فى الآية ٢٦ من سورة النجم .

ولا يتسع المجال هنا للكلام على وثنية العرب التى نظمها عبد المطلب وجعل أمرها كالدين المتبع ، فهذا لا يدخل فى نطاق بحثنا هذا ، والدراسات عنها كثيرة جداً، ولكننا نجتزىء من الكلام عنها بآيتين من كلام الله سبحانه فيهما غناء . وهما قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [ العنكبوت ] - وقوله سبحانه فى سورة الزمر : ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [ الزمر ] .

كان عبد المطلب هو الذى نظم تلك العبادات الدينية ، وأكمل بتنظيمه هذا بناء قوة قريش السياسية والاقتصادية والدينية فزادت مهابة قريش فى أعين العرب ، فقد توالى على رياستها أربعة من الموهوبين على نسق من عمود نسب واحد : قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب ، وكانت الظروف مواتية لقريش ، فالحرب بين الفرس والروم على أَشُدِّها والتجارة بين الشرق والغرب منقطعة إلا عن الطريق من اليمن إلى الشام ومكة مركزها الأكبر ، والقرشيون أذكياء مهرة عرفوا كيف ينظمون أمر هذه التجارة ويربطون بينها وبين العبادات الوثنية ، فلم تعد مكة سوق الجزيرة الأكبر

فحسب بل محجها الأكبر أيضاً ، وقد أحسنوا سياسة أمورهم فزاد توافد الناس على بلدهم للحج والتجارة والاستمتاع وتناشد الأشعار والتعارف وتقارب الألسنة والأفكار كما سنرى بعد قليل .

وقد كان الجانب الأكبر من التجارة المكية تجارة مرور أى نقل التجارة من اليمن والحبشة إلى مكة وأسواقها ، ومنها إلى الشام حسب نظام الرحلتين الدقيق ، وإلى جانب الأسواق الموسمية فى ذى المجاز ومجنة وعكاظ كانت مكة سوقاً دائماً لكل أصناف هذه المتاجر ، وكانت تجارتهم فى مكة تجارة تخصص لا تجارة دكاكين ومخازن ، أى : أن كل مشتغل بالتجارة فى مكة كان له تخصصه والبضاعة فى بيته ، فهذا متخصص فى العطور وذلك فى الجلود أو العود أو الصندل أو العاج أو الأبنوس أو الحرير أو القطن أو السيوف أو الذهب أو الفضة وما إلى ذلك ، فإذا وفد التاجر الغريب على مكة قصد المتخصص فيها فى بيته فباع منه أو اشترى ، وعندما نقول إن رسول الله كان يشتغل بالتجارة فهذه صورة ممارسته لها ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم بصاحب دكان كما جاء فى المادة التى أداروها عليه فى إحدى طبعات دائرة المعارف البريطانية وكما يزعم المستشرق مكسيم رودانسون فى كتابه المعروف عن الإسلام والرأسمالية .

وكان عبد المطلب وبنو هاشم وحلفاؤهم معهم يُلْزِمون التجار بسلوك أخلاقى دقيق من حسن المعاملة والأمانة وإحسان لقاء التاجر واستضافته وتأمينه وأدائه حقه . وعلى هذا انتظمت أمورهم وزادت ثرواتهم واتسعت تجارتهم . وكان المشرفون على التجارة ونظمها وسلوكياتها بيت عبد المطلب وبنيه وخاصة بنى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف وبيت زهرة بن كلاب وبيت تيم بن مرة وبيت الحارث بن فهر وبيت أسد ابن عبد العزى . ويضيف بعض الرواة بيت عَدىّ بن كعب ، ولكن وجود بنى عدى فى هذه الجماعة مختلف فيه ، ويبدو أن الرواة أضافوه فيما بعد إكراماً لعمر بن الخطاب حتى يجتمع بيت رسول الله وبيتا أبى بكر وعمر فى جانب واحد .

وعندما كبرت سِنُّ عبد المطلب وشاخ وهَطُلَ عن العمل انتقلت الرياسة الاسمية إلى ابنه الزبير ، ولم يكن بالزبير بن عبد المطلب بأس ، فقد كان رجلاً ذا كفاية ولكن

بيوت قريش الأخرى أنجبت رجالاً غلب عليهم الطمع فى مكاسب التجارة والجشع فى خيراتها وخاصة بنوعبد شمس بن عبد مناف وبيت نوفل بن عبد مناف وبيت مخزوم وهم بنو يقظة بن مرة وبيت سهم وجمح ابنى عمرو بن هُصيص بن كعب .

ورجال هذه البيوت شرهت نفوسهم إلى المكاسب وجَمع بعض رجالها ثروات ضخمة وبهذه الثروات ازداد جاههم واستبدادهم وفسادهم ، فتخلوا عن أخلاقيات عبد المطلب وظلموا صغار التجار وغرباءهم ، وعندما مات عبد المطلب فى حدود ٥٧٩ ميلادية ( لأنه توفى ورسول الله ابن ثمان سنين ) انتقلت الرياسة فعلاً إلى الزبير ابنه ، وهو شقيق عبد الله والد رسول الله ﷺ ، ولا نظن أنه كان أكبر ولده بعد الحارث، وعجز الزبير عن كبح جماح هذا النفر من القرشيين الذين سيطروا على مكة بأموالهم وأتباعهم وخالفوا كل قاعدة كان وضعها عبد المطلب وأبوه هاشم وجدُّه عبد مناف . والبلاذرى يعطينا فى جزء من أجزاء أنساب الأشراف ، نُشِر حديثاً ، كلاماً طويلاً عن الزبير ولكنه لا يجيبنا عن سؤال واحد مما يهمنا من أمره ، ولكنه يقول إنه أول من تكلم فى حلف الفضول ودعا إليه .

ثم يعطينا البلاذرى أسباب عقد هذا الحلف فيقول : « إن الرجل من العرب أو العجم كان يقدم بالتجارة فربما ظُلِم بمكة فقدم رجل من زبيد ( من بنى سعد العشرة) بسلعة فباعها من العاص بن وائل السهمى فظلمه فيها وجحده ثمنها فناشده الله فلم ينفعه ذلك عنده ، فنادى ذات يوم عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتها :

يَـا آلَ فِهْـرٍ لمظْـلُـومٌ بِضَاعَتـه ببطْـنِ مَكَّـة نَائِى الحَىّ والنَّفَر

ومُحرِمٌ أشْعَـثُ لم يَقْضِ عُمْرته يَا آلَ فِهْـرٍ بيْـنَ الحِجْر والحَجَر

فقال الزبير : ما لهذا مَتْرك ، فجمع إخوته ، واجتمعت :

بنو هاشم

وبنو المطلب بن عبد مناف

وبنو أسد بن عبد العزى بن قصى

وبنو زهرة بن كلاب

وبنو تيم بن مرة بن كعب

فى دار أبى زهير عبد الله بن جدعان القرشى ثم التيمى فتحالفوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا نصروه ورفدوه وأعانوه حتى يؤدَّى إليه حقه ويُنْصِفَه ظالمه من مظلمته وعادوا عليه بفضول أموالهم ما بَلَّ بحرٌ صوفه ، وأكدوا ذلك وتعاهدوا عليه وتماسحوا قياماً ، وشهد رسول الله ﷺ ذلك الحلف فكان يقول :ما سرنى بحلف شَهدته فى دار ابن جدعان حُمر النعم ، فسمى الحلف حلف الفضول لبذلهم فضول أموالهم»[1] .

ثم يعطى البلاذرى تفسيراً آخر لاسم الفضول قال : لِتَكَلُّفِهم فضولاً لا يجب عليهم وتفسيراً ثالثاً ظاهر الافتعال .

ثم يضيف أنهم قاموا على العاص بن وائل السهمى حتى رد على الرجل ماله ، وقال الزبير فى ذلك شعراً .

ثم يضيف مثالاً آخر من ظلم صغار التجار بمكة ، والضحية فيه تاجر من بارق ، وبارق هم بنو سعد بن عدى بن حارثة من اليمن ، والمعتدى أبىّ بن خلف الجُمحى - جمح أبناء عم بنى سهم - وهنا أيضاً نجد أهل حلف الفضول يأخذون للرجل حقه .

وحادثة ثالثة ضحيتها رجل من خثعم ( من اليمن ) والمعتدى من بنى سهم بن عمرو هصيص فقد غصب الرجل ابنته فقام أصحاب حلف الفضول بإرغام السهمى على إعادة البنت لأبيها . فالعدوان فى تلك الحالات الثلاث التى يذكرها البلاذرى جاء من ناحية فرعى هصيص بن كعب ، وهم فى حساب المسعودى من قريش الظواهر[2] ، وقريش الظواهر هم فى الغالب أولئك الذين لزمهم اسم فهر فيما قلناه ، ويؤيد ذلك أن الزّبيدى الذى ظُلم أولاً عندما استجار بآل فهر ، قوم العاص بن وائل السهمى ، فلما لم يجد نصفةً استجار بآل قصى ، وهم صلب قريش فأنصفه أهل حلف الفضول ، وكلهم من صميم قريش وقال :

---

(١) نشر هذا الجزء من الأنساب الشيخ محمد باقر المحمودى دون أن يحدد أى جزء يكون من الكتاب ، ولكنه يقع فى الجزء الأول من تقسيم أجزاء أنساب الأشراف الذى أورده د . محمد حميد الله فى الجزء الأول من أنساب الأشراف الذى نشرته له دار المعارف فى القاهرة ١٩٥٩ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، طبعة القاهرة ١٩٦٤ . ٢/ ٥٩ .

يآل قُصَى ! كيفَ هَذَا فى الحرم وحُـرْمة البيتِ وأخلاق الكَرم

أُظْلَم لا يمنع منى مَنْ ظُلِم !

فكان هذا الرَّجَز هو الذى حرك الزبير بن عبد المطلب إلى عقد حلف الفضول على ما قلناه .

ولكن يبدو أن قيام حلف الفضول ، والحلف المناهض له - وهو حلف الأحلاف - كانت لهما أسباب أعمق وأبعد ، فإن قريشاً فى طريقها إلى التَّكَوُّن ، وقع فيها الصدع الذى فرق بين جماعة قريش وجماعة فهر ، ثم عمل قصى على لم الشعث عند دخوله مكة فآوى بيوت فهر المنفصلة عن قريش وجمعها وأسكنها ظاهر مكة ، فكانت قريش الظواهر . فإن المسعودى يذكر حِلفاً يسميه بالمطيبين يتكون من :

بنى عبد مناف بن قصى

وبنى أسد بن عبد العزى بن قصى

وبنى زهرة بن كلاب أخى قصى

وبنى تيم بن مرة بن أخى كلاب والد قصى

وبنى الحارث بن لؤى من قريش الظواهر

والظاهر أن كتلة المطيبين هنا هى كتلة ترتبط أشد الارتباط بقُصىّ ، ولنا على ذلك دليل وهو انضمام بنى الحارث بن لؤى إليهم ، فبنو الحارث هؤلاء كانوا بيتاً مخلخلاً انضم فريق منه يسمى جشم إلى بنى هزان من ربيعة . والبقية فيما يبدو انضمت إلى جماعة قصى . والمطيبون أخذوا اسمهم من جَفنة طِيب غمسوا أيديهم فيها تأكيداً للحلف . وأقرب ما يقال فى هذا الحلف أن قصياً عندما استقر له الأمر فى مكة وجمع قريشاً فيها عقد هو وخاصة قومه حلف المطيبين فكانوا نواة قريش وصميم قوتها . فلما حدث التخلخل أيام الزبير بن عبد المطلب وأحس أنصاره بالخطر على مجتمعهم المكى وتقاليده قام الزبير بتوكيده فى صورة حلف الفضول وهو فى أحسن التفسيرات حلف أهل الفضل أو الأفاضل ، ولا غرابة والحالة هذه من أن يذكر رسول الله هذا

الحلف الجاهلى بالخير ، مع أنه ﷺ ألغى الأحلاف والتكتلات داخل الجماعة الإسلامية بحديثه المأثور : لا حلف فى الإسلام . أى : لا تحالفات فرعية داخل أمة الإسلام الواحدة .

والتصدع داخل قريش بدأ بعد موت قصى ، فإن كبير أولاده عبد الدار أراد أن يخلفه فى الرياسة ، ولكن أخاه عبد مناف تمكن من انتزاع الرياسة منه ، واعتز فى ذلك بعصبة أبيه قصى وهم حلف المطيبين التى ذكرناها ، واعتز عبد الدار بجماعة أخرى من قريش هم :

بنو يقظة بن مرة بن كعب وهم مخزوم

بنو سهم بن هصيص بن كعب

بنو جمح بن هصيص بن كعب

وهذا هو حلف الأحلاف أو لعقة الدم الذى انضم إليه بنوعبد شمس فيما بعد ، وقد تمكن عبد مناف من رأب هذا الصدع وجمع قريشاً كلها إلى جانبه . ولكن الصدع عاد فظهر أيام هاشم عندما تحداه أمية ابن أخيه عبد شمس ونافره ، فانتصر عليه هاشم وتمكن من جمع الشمل وخلفه عبد المطلب فعرف كيف يُقَوِّى وحدة قريش ويرفع شأنها ويزيد جاهها بما أضافه من عنصر الدين، فأصبح أمر قريش كلها معقوداً - بلواء بنى عبد المطلب بن هاشم ، ولكن جماعة حلف الأحلاف رفعت لواء التحدى بعد عبد المطلب وقيام الزبير بالأمر فكان هذا دافعاً له لإحياء حلف المطيبين فعقد حلف الفضول ، وهو توكيد لحلف المطيبين .

ولكن الانكسار الحاسم فى وحدة قريش كان قد تجسد وأصبح حقيقة ، وقبيل مبعث رسول الله ﷺ كانت قريش فعلاً قد انقسمت إلى جماعتين : جماعة بنى هاشم وأحلافهم يمثلون تقاليد عبد المطلب وقواعده الأخلاقية والدينية ، وجماعة بنى عبد شمس وأحلافهم ممن ذهبوا مع الإفادة من مكاسب التجارة إلى أقصى مداها مما كاد يفسد المجتمع المكى ويُعرِّضه للخطر ، وهاتان الجماعتان تتركبان كما يلى :

| حلف الفضول وهم أصلاً حلف المطيبين | الأحلاف أو لعقة الدم |
|---|---|
| بنو هاشم بن عبد مناف | بنو عبد شمس بن عبد مناف |
| بن المطلب | بنو مخزوم بن يقظة |
| بنو زهرة | بنو سهم بن هصيص |
| بنو تيم بن مرة | بنو جمح بن هصيص |
| بنو الحارث بن فهر | بنو عبد الدار بن قصى |

والغالب أن حلف المطيبين عُقِد فى أيام هاشم بعد أن استقر له الأمر وتخلص من تحدى ابن أخيه أمية بن عبد شمس إياه ، وفى أيام الزبير بن عبد المطلب دعت الضرورة إلى إحياء هذا الحلف لمواجهة حلف الأحلاف أو لعقة الدم ، فعقد حلف الفضول من أنصار بنى هاشم ، وظلت جبهة الأحلاف قائمة يتزعمها بنو عبد شمس وبنو مخزوم ومن انضم إليهم . وقد اختلط أمر الحلفين - المطيبين والفضول على البلاذرى فقال : «وكان هاشم بن عبد المطلب حاضراً حلف المطيبين فكيف يحضره رسول الله ﷺ إلا أن بطون المطيبين هم الذين تعاقدوا أيضاً على حلف الفضول، فأحسب هذا الحلف نُسِب إليهم أيضاً»[1] وقد وضحنا حقيقة ذلك.

## انقسام قريش إلىَ مُعسكرَين وَدخول الفسَاد إليهَا :

وقد ضربنا أمثلة لما نال البناء الأخلاقى والمعنوى لقريش فى أواخر أيام عبد المطلب وعجزه فى شيخوخته عن ضبط الأمور فى مكة . وقد رأينا أن الأمر استشرى بعد عبد المطلب وعجز الزبير ابنه عن الحفاظ على سلامة البناء ، فاضطر إلى عقد حلف الفضول للوقوف فى وجه التدهور وتخطى القواعد التى رسمها بناة قريش الذين ذكرناهم ، ومن هذه الناحية استشرى الوهن فى المجتمع القرشى ، ولم تعد مكة بقيادة قريش ذلك المركز التجارى العمرانى القائم الذى رأيناه أيام عبد المطلب .

والأمثلة التى ذكرناها كلها ترجع إلى أيام الزبير ، فلما انتهت رياسة الزبير بوفاته فى الغالب - انتقل الأمر إلى أخيه أبى طالب ، ولم يكن بأقوى من أخيه الزبير ، بل زاد الفساد وكثر التعدى على صغار التجار الغرباء ، وتجمعت ثروات ضخمة فى أيدى

(١) أنساب الأشراف ، ٢ / ١٥ .

أولئك الذين قبضوا على زمام التجارة ، ومعظمهم من حلف الأحلاف أو لعقة الدم ، وهم حزب بنى عبد شمس ومخزوم ومن انضم إليهم . وقد وقع ذلك فى سنوات شباب رسول الله ﷺ، وقد حضر بنفسه حلف الفضول فى دار عبد الله بن جدعان شيخ بنى تيم بن مرة قبيل أبى بكر الصديق. ولم يكن بنو تيم بن مرة من كبار بيوت قريش بل ربما كانوا فى الأصل من قريش الظواهر، ولكن عبد الله بن جدعان كان رجلاً ماهراً تجمعت له ثروة كبيرة جداً تأتَّت فيما قيل من كنز عثر عليه ولكن ذلك مستبعد ، والغالب أن الرجل جمع تلك الثروة من التجارة ، وسنرى بعد قليل أن الكثيرين ممن استغلوا الناحية التجارية إلى أقصى حد استطاعوا أن يجمعوا ثروات تزيد على ما جمعه عبد الله بن جدعان .

ونلاحظ أن قيادة القوافل انتقلت من بنى هاشم إلى رجال آخرين من بنى عبد شمس ومخزوم وحلفائهما ، ولما كان بنو هاشم يضطلعون بالمسئوليات المكلِّفة مثل الرفادة والسقاية والحجابة والندوة فإن ثرواتهم كانت فى تناقص فى حين أن ثروات خصومهم ازدادت ضخامة عن طريق الاستبداد بأمر التجارة أولاً ثم عن طريق المظالم والقهر والعدوان على الضعفاء وأموالهم ، وسترد أمثلة كثيرة على ذلك فى الفصل التالى الذى سنتكلم فيه عن موقف قريش من الإسلام.

ولكننا نقف هنا عند مظهر آخر من مظاهر الوهن والفساد الذى دب فى كيان النظام القرشى ، وهذا المظهر سيتجلى فى ناحية التنظيم الدينى. وكان عبد المطلب قد جمع العقائد الوثنية وغيرها ووضع أصنامها جميعاً حول الكعبة وجعلها على قدم المساواة بين الأوثان وأصحابها ، وأسقط الامتيازات التى كانت تتمتع بها بعض القبائل فى بعض نواحى مناسك الحج مثل عرفات ومنى. وقد اعتبر عبد المطلب مواقف الحج ومواقعه كلها داخلة فى الحرم حتى عرفات ، أى أن أراضيها وسكانها يتمتعون بحرمة الأراضى المقدسة وأمانها ، فاتجهت هذه الفئة المستبدة بأمر مكة إلى تمييز نفسها على غيرها وقصر منطقة الحرم على بطن مكة ، وما عدا ذلك فقد جعلوه من الحل أى المناطق التى لا يـُحرم فيها القتال أو العدوان أو الصيد وما إلى ذلك .

ونقول : إن هذا الانحراف جاء على أيدى الجبهة المعارضة لبنى هاشم ، لأننا

سنرى أن بنى هاشم ويمثلهم أبو طالب كانوا دائماً إلى جانب العودة بمناسك الحج إلى ما كانت عليه فى الزمن القديم ، وسنرى أن رسول الله فى حجة الوداع التى ثُبتت فيها مناسك الحج الإسلامى بصورة دائمة أعاد لكل مواقع المناسك حتى عرفات حرمتها فيما عدا وادى عُرنة ووادى مُحَسِّر ، ونص على هذه المناسك فى عمله وفى خطبة الوداع وشدد فى تحريم الربا والنسىء والتفرقة بين مواقف الحج .

وفى صفة حجة الوداع عند الواقدى نقرأ الخبر التالى عن ابن عباس : «إن رسول الله ﷺ وقف بالهِضاب من عرفة فقال : كل عرفة موقف إلا بطن عُرَنة، وكل المُزْدَلفة موقف إلا بطن مُحَسِّر ، وكل منى مَنْحَر إلا خلف العقبة . قالوا : وبعث رسول الله ﷺ إلى من هو بأقصى عرفة فقال : الزموا مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم»[1] وهذا يدل على أن هذا الموضع من عرفة كان من بين مواقف الحج الأصيلة أيام إبراهيم عليه السلام ، ولكن قريشاً غيَّرت ذلك فى الجاهلية ، فقد روى الواقدى عن أحد رواته أنه رأى رسول الله «وقد دفع من عرفة إلى جمع (المزدلفة). والنار توقد بالمزدلفة وهو - أى رسول الله ﷺ - يؤمها حتى نزل قريباً منها» ، وأضاف «أن سليمان بن عبد الملك رأى تلك النار عند المزدلفة فى حَجِّهِ فسأل رجلاً يسمى خارجة بن زيد عنها قائلاً : متى كانت هذه النار يا أبا زيد ؟ قال : كانت فى الجاهلية ، وضعتها قريش (وقالت): لا تخرج من الحرم إلى عرفة [2]. تقول : نحن أهل الله ! ولقد أخبرنى حسان بن ثابت وغيره فى نفر من قومى أنهم كانوا يحجون فى الجاهلية فيرون هذه النار » [3].

وقال الواقدى بشأن ذهاب رسول الله إلى عرفة فى حجة الوداع : «قالوا : وكانت قريش لا تشك أن رسول الله ﷺ لا يجاوز المزدلفة يقف بها . فقال له نوفل بن معاوية الدِّيلى، وهو يسير إلى جنبه : يا رسول الله ، ظن قومك أنك تقف بجَمْع (المزدلفة) ، فقال رسول الله ﷺ : لقد كنت بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم . وقال جبير بن مطعم :

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ١١٠٣ - ١١٠٤.

(٢) أضاف الناشر المستر مارسدن جونز لفظ (الا) بين معقوفتين قبل لفظ تقول ، ولا مجال لهذه الزيادة بل هى تفسد المعنى انظر جـ٣/ ١١٠٥.

(٣) الواقدى، مغازى : ٣/ ١١٠٥.

رأيت رسول الله يقف بعرفة قبل النبوة ، وكانت قريش كلها تقف بجمع إلا شيبة بن ربيعة ، وأن موسى بن عقبة حدثنى عن عمه عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ، عن أسماء بنت أبى بكر ، قالت : كان شيبة بن ربيعة من بنى قريش يقف بعرفة عليه ثوبان أسودان ، وزمام بعيره من شعر بين غرزين أسودين حتى يقف مع الناس بعرفة ، ثم يدفع بِدَفْعِهم ، وكانت قريش تقول : نحن لا نتكلم مع الناس - يعنى العرب - فقد كانت العرب تقف بعرفة ، وقريش بجمع تقول : نحن أهل الله »[1].

ومعنى ذلك أن قريشاً فى الجاهلية ميزت نفسها بالوقوف بجَمع فى حين أن بقية الناس يقفون بعرفة ، وهذا التمييز لابد أن يكون قد تم بعد عبد المطلب ، بدليل أن رسول الله كان إذا حج فى الجاهلية وقف بعرفة مع بقية الناس، ويدفع منها مع الناس إلى جمع وهى المزدلفة ، والمراد بقريش هنا هى جماعة الذين أدخلوا التغيير على دين عبد المطلب بدليل أن الخبر يستثنى من ذلك التغيير شيبة بن ربيعة بن عبد شمس وهومن كبار رجال الأحلاف ، وفيهم عبد شمس.

وتفصيل هذا الخبر وارد عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق وهو وارد فى المحبر لمحمد بن حبيب النسابة ، وفى كتاب الأصنام للكلبى ، وفى أخبار مكة للأزرقى ، ولكن نص ابن إسحاق هنا أوضح وأكثر تفصيلاً ، وهو وارد تحت عنوان حديث الحُمُس ، وهو يعطينا فكرة عما أحدث نفر من القرشيين من التغيير فى القواعد التى ضبطها عبد المطلب ، والمراد بقريش هنا جماعة المعارضين الخارجين على بنى عبد المطلب ، ومن هنا فإن هذا التغيير وابتداع أمر الحُمُس حدث بعد عبد المطلب.

قال ابن إسحاق تحت عنوان حديث الحُمُس :

١ - وقد كانت قريش - لا أدرى أقبل الفيل أم بعده - ابتدعت رأى الحمس، رأياً رأوه وأداروه . فقالوا : نحن آل إبراهيم وولاة الحرم، وولاة البيت قُطَّان مكة ومساكنها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف .

---

(١) الواقدى ، مغازى ٣/ ١١٠١ - ١١٠٢ (انظر جـ ٣ ص ١١٠٥).

٢ - فلا تعظمون شيئاً من الحِلّ كما تعظمون الحرم ، فإنكم إن فعلتم ذلك استخَفَّت العرب بحرمتكم ، وقالوا : قد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم .

٣ - فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة منها ، وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها .

٤ - إلا أنهم قد قالوا : نحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ولا نعظم غيرها كما نعظمها . نحن الحُمس والحمْس أهل الحرم.

٥ - ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم بولادتهم إياهم يَحِلُّ لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم.

٦ - وكانت كنانة وخزاعة قد دخلوا معهم فى ذلك ، قال ابن هشام : وحَدَّثنى أبو عبيدة النحوى قال : إن بنى عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن دخلوا معهم فى ذلك ، وأنشدنى لعمرو بن معد يكرب :

أَعبَّاسُ لَوْ كَانَتْ شِيَاراً جيادُنَا

بِتَثْلِيثِ ما نَاصَيْتَ بعدى الأَحَامِسَا

قال ابن هشام : تَثليثُ موضع من بلادهم ، والشيارُ الحسان . ويعنى بالأحامس بنى عامر بن صعصعة. وبعباس عباس بن مرداس السُّلَمى ، وكان أغار على بنى زبيد بتثليث .

وأنشدنى اللقيط بن زرارة الدارمى فى يوم جبلة :

اجْذِم إليكَ إنها بَنُو عَبْسٍ المعشَرِ الحلّة فى القَوْم الحُمسِ

لأن بنى عبس كانوا يوم جَبَلَة حلفاء فى بنى عامر بن صعصعة .

٧ - ثم ابتدعوا فى ذلك أموراً لم تكن لهم حتى قالوا : لا ينبغى للحمس أن يأتقطوا الأقط ولا يسلئوا السَّمن وهم حرم ، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ، ولا يستظلوا إذا استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرماً.

٨ - ثم رفعوا فى ذلك فقالوا : لاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم ، إذا جاءوا حجاجاً أو عُمَّاراً.

٩ - ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس، فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لم ينتفع بها ولا يمسها هو ولا أحد من قومه أياماً ، فكانت العرب تسمى تلك الثياب اللَّقى.

١٠ - فحملوا على ذلك العرب فدانت به ، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها ، وطافوا بالبيت عراة ، أما الرجال فيطوفون عراة ، أما النساء فتضع إحداهن ثيابها إلا درعاً مُفْرجاً عليها ثم تطوف فيه.

ومن طاف منهم فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها فلم ينتفع بها لا هو ولا غيره. فقال قائل من العرب يذكر شيئاً تركه من ثيابه فلا يقربه ، وهو يحبه :

كَفَى حُزْناً كَرِّى عَلَيْهِ كَأَنَّهُ  لقى بين أيدِى الطائفين حَرِيمُ

يقول : حريم أى لا تمس .

١١ - فكانوا كذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه حين أحكم له دينه وشرع له سُنَن حَجِّه ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) ﴾ [ البقرة ] يعنى قريشاً ، والناس العرب، فرفعهم (كذا فى الأصل والأصوب هنا : فَرَجَعهم ) فى سنة الحج إلى عرفات والوقوف عليها والإفاضة منها.

١٢ - وأنزل الله فيما كانوا حرَّموا على الناس من طعامهم ولباسهم عند البيت حين طافوا عراة ، وحرموا ما جاءوا به من الحل من الطعام: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾ [ الأعراف ] .

فوضع الله تعالى أمر الحُمُس ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام حين بعث الله به رسوله ﷺ .

١٣ - قال ابن إسحاق: حدثنى ... ... لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى، وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس من بنى قومه حتى يدفع معهم منها ، توفيقاً من الله له ﷺ (١) .

والآن نُفصِّل ما فى هذه الفقرة الطويلة على ضوء ما ذكرنا من الحقائق فنجد فيها تفصيلاً وتوضيحاً لبعض الذى قلناه فى أمر اتجاه فريق من قريش - هم الذين يعادون الفضول وحلفهم - إلى تحقيق منافع خاصة بهم من وراء الحج.

وينبغى أن نلاحظ أن شراح سيرة ابن هشام - القدامى منهم مثل السهيلى فى الروض الأنف ، والمحدثون ومنهم من نشروا سيرة ابن هشام وحققوها - ذلك التحقيق الجيد المتداول بين الناس - لم يفطنوا إلى ما وراء هذه التفاصيل حاسبين أن قريشاً فعلت ما فعلت كفراً منها بدين إبراهيم وجهلاً وطغياناً حتى أعاد الله الأمر إلى نصابه وعاد بالحج ومناسكه إلى سنة الله التى كان عليها إبراهيم الخليل.

وهؤلاء جميعاً يضعون قريشاً كلها فى الحُمُس مع أن رسول الله ﷺ وبعض قومه من بنى هاشم وحلفائهم رفضوا الانسياق مع جبهة المبتدعين لهذه الأمور المخالفين لسنة الحج الأولى ، وهى التى التزمها رسول الله ﷺ وقومه قبل الإسلام وكان التزامهم إياها جزءاً من المحافظة على التقاليد الدينية التقليدية التى ضبطها وأحكم أمرها عبد المطلب بن هاشم (انظر الفقرة ١٣) من النص الذى أتينا به.

١ - فأما الفقرة الأولى فتنص على أن قريشاً ابتدعت الحُمُس هذا من عند نفسها بدافع الأنانية والغرور، فقد زعموا أنهم سكان مكة وسادتها ، ولهذا فهم أفضل من بقية العرب وأنهم أعرف الناس بشئون المناسك . فأما ما ورد فى هذه الفقرة من النص من أنهم قالوا إنهم بنو إبراهيم وأهل حرمه ، فإضافة من الرواة لأن قريشاً قبل الإسلام لم تكن تقول بأنهم أبناء إبراهيم. إنما وجد هذا الإحساس عند عبد

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٢١١ - ٢٢١.

المطلب ومن كان على دينه وهم المطيبون ثم الفضول ومع ذلك فما كانت فكرة الله الواحد واضحة عند عبد المطلب ، ولا كانت فكرة الانتساب إلى إبراهيم واضحة عنده . وقريش المذكورة فى هذه الفقرة هم فريق قريش المبتدع - المباعد لقواعد الخلق الفاضل والمساواة بين الناس ، هم المناهضون لرأى الفضول الذين أثنى رسول الله على حلفهم وقال إنه لا يعدل به حمر النعم ، فكيف يقول ذلك إلا وهو يرى فيه تأييداً لما كان هو وقومه يقومون به من الالتزام - بمكارم الأخلاق والتزام سنة عبد المطلب فى الحج وغيره ، وهذا المعنى للفظ قريش جديد هنا وهو أثر من النظرة الرجعية من جانب المؤرخين على عادتهم من العودة بما كان قبل الإسلام إلى ما كان بعده ، وقد نبهنا إلى هذا المعنى مرة بعد أخرى .

وإذن فقريش التى ابتدعت نظام الحمس بتفاصيله ليست قريش حلف الفضول ، فإن الفضول - أى الأفاضل - لا يقولون إنهم خير من سواهم من العرب ، وأنهم ينبغى أن يميزوا أنفسهم بأشياء وأنهم إذا ساروا فى ركاب غيرهم وفعلوا فعلهم استخفت بهم العرب.

٢ - ولهذا فقد قصروا الحرمة كلها على مكة ، ورفضوا أن يمتد نطاق حرمة مكة وكعبتها حتى عرفات . وإذا خرجوا للحج لم يتجاوزوا جمعاً وهى مزدلفة كما رأينا فى كلام الواقدى الذى أوردناه عن حجة الوداع .

ثم أطلقوا على أنفسهم اسم الحُمس أو الأحامس ، وهو لفظ لا نعرف معناه على وجه التحديد وإن كان شراح السيرة من القدامى والمحدثين يزعمون أنهم يعرفون هذا المعنى حق المعرفة وتفسيره على وجه التقريب لا التحديد فى رأينا أنهم زعموا أنهم أفضل العرب وأهل الحرم والحرمة وأعرف الناس بمناسك الحج ، أو أن لهم فيه مناسك أخرى يتميزون بها عن الناس (انظر الفقرتين ٣ ، ٤).

وفى الفقرة الخامسة نجد هذا الفريق من القرشيين الذين قالوا بامتياز أنفسهم على غيرهم وقصر الحرمة على مكة ، وما رأوا من الاقتصار من مناسك الحج على جمع دون

عرفات ، فإذا وصلنا إلى الفقرة الخامسة بدأنا نرى بعض الدوافع لابتداع فكرة الحمس أو الأحامس . وقد قررنا فيما سلف أن الذين ابتدعوا ذلك لم يكونوا أصحاب حلف المطيبين أو الفضول فإن محمداً ﷺ كان من هؤلاء ، وقد حضر حلف الفضول وأثنى عليه .

وهذا الحلف مناهض لاتجاه الانحراف عن القواعد الأساسية التى وضعها قصى وخلفاؤه لقريش فى مكة وأقاموا بها مجد القبيلة بأسرها ، فأدت الغيرة بنفر من خصوم هاشم وبنيه إلى تحديهم ومحاولة التقليل من شأن ما كانوا يعملون من الرفادة والسقاية ورعاية الحاج وإكرام ضيوف مكة ومعاملتهم بالحسنى دون تفرقة اجتذاباً لهم واستئلافاً لقلوبهم فقوى مركز قريش كلها ، فلما نزعت الجماعة المناهضة لبنى هاشم وجماعتهم نزوع التحدى والتطاول بالمال وجدوا أنهم لا يثبتون لبنى هاشم فسعوا إلى تكثير عددهم بأن يضموا إلى صفوفهم ناساً من غير قريش، وأدخلوهم معهم فيما زعموا لأنفسهم من تميُّز عن غيرهم ، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذى لهم ، فبولادتهم إياهم يحل لهم ما يحل لهم ، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم فدخلت معهم فى ذلك بعض كنانة وخزاعة وبنى عامر بن صعصعة (وهؤلاء جميعاً يسكنون الحجاز) وهذه كلها حقائق تنفعنا فى فهم مواقف العرب من أهل الحجاز من الدعوة الإسلامية ، فإن كفار قريش ومن لف لفهم نظروا إلى الدعوة الإسلامية على أنها دعوة هاشمية أراد بها بنو هاشم استعادة مركزهم والوقوف فى وجه منافسيهم من الأحلاف أو لعقة الدم .

وفى الفقرتين ٧ و ٨ نرى جوانب من الدوافع الاقتصادية وراء القول برأى الحمس ، فهم يريدون أن يستغلوا الحجاج وزوار مكة إلى أقصى حد ، ويستخرجوا منهم أقصى ما يستطيعون من مال :

أ - فهم يحرمون على أنفسهم الزبد وهو الأقط هنا ، وذلك لكى يبيعوه من الحجاج كما سنرى ، وكذلك لا يُصَفُّون السمن من أوشابه لكى يبيعوه بكل ما فيه ويزداد ربحهم منه ، ولهذا فقد حرموا على زوار مكة القادمين من خارجها وهم الحل أن يدخلوا مكة بطعام أتوا به معهم من خارج مكة وفرضوا عليهم ألا يطوفوا إلا فى

ثياب يأخذونها - أى يشترونها أو يكترونها من الحمس أى هذا الفريق القرشى ، ومن لم يشتر من غير المكيين ثياباً أو يكتريها ليطوف بها طاف عرياناً ، فإذا هو لبس ثياباً من مكانه أثناء الطواف كان عليه أن يلقيها بعد الطواف فلا يستعملها هو أو غيره بعد ذلك ، والناس فى هذه الحالة مضطرون إلى شراء الثياب من القرشيين كما كانوا ملتزمين بشراء الطعام منهم وبلغ من تشددهم فى ذلك أن بعض الناس ممن اضطروا إلى إلقاء ثيابهم العزيزة عليهم قالوا شعراً يشكون به من هذا الاستبداد.

ب - ولهذا كله ، وعندما جاء الله بالإسلام ألغى ذلك كله فألغيت حكاية الاقتصار فى الحرم على مكة وامتدادها إلى جمع وهى مزدلفة وأمر القرشيين بأن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، وكان محمد ﷺ وقومه لم يغيروا السُّنة الأولى .

ثم ألغى القرآن الكريم تلك القيود التى وضعها هذا النفر من القرشيين ، وأطلق للناس حرية المطعم والمشرب بلا قيود إلا الاعتدال لأن الله لا يحب المسرفين ، ثم يسأل القرآن الكريم - فى معرض البيان - ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (٣٢) ﴾ [ الأعراف ] ويجيب الله سبحانه - مزيداً فى البيان فيقول : ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) ﴾ [ الأعراف ] أى : يريدون أن يعلموا الحقائق ، ويؤكد ابن إسحاق ذلك كله فيقول فى ختام هذه الفقرة : «فوضع الله تعالى أمر الحُمس ، وما كانت قريش ابتدعت منه على الناس بالإسلام . حين بعث الله به رسوله ﷺ[1]». فرأى الحمس أو مذهبه هذا كله كان ابتداعاً من هذا النفر من القرشيين الذى ذهب بهم الجشع كل مذهب فلم يقنعوا بالرزق الحلال بل استبد بهم الجشع ، فأرادوا من الناس ألا يأكلوا ولا يلبسوا أثناء مقامهم بمكة فى أثناء الموسم إلا ما يشترونه من قريش فى مكة وذهبوا مع الربا إلى غايات بعيدة ظلموا فيها الناس ظلماً بيناً ، ضللوا الناس بالنسىء أى فى التغيير فى تواريخ الشهور وتواريخ استحقاق الديون مبالغة منهم فى استغلالهم ، وغالطوا الناس فى حساب الشهور ليطيلوا أمد الحج أو يقدموه أو يؤخروه كيف شاءت مطامعهم .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ١/ ٢١٦.

وهذا كله بالإضافة إلى مناكر أخرى زادت فى ثروات المستغلين والمرابين والمغالطين فى الحساب والمطففين فى الكيل ، ويراد بذلك الغش فى أمر القياس عامة ، فكان هذا النفر المناهض للفضل وأهله وهم الفضول هم الذين أفسدوا أمر المجتمع القرشى الذى أنشأه قصى وعبد مناف وهاشم وعبد المطلب . وأراد المطيبون أو الفضول أن يتمسكوا به فناهضهم الآخرون ، وقد رأينا أن النسىء كان فى بنى القَلَمُس أى أصحاب القلم ، وكان هؤلاء جميعاً فى جانب المفسدين للنظام المكى القويم.

وهذا التفسير من جانبنا لكلام ابن إسحاق وما يتضمنه من معلومات عن استبداد جماعة المال فى المجتمع المكى يفسر لنا اتجاه ذلك المجتمع إلى التدهور والفساد بعد أيام عبد المطلب . فأما الفساد وتزايده حقيقة يقول بها القرآن الكريم وتؤيدها كل المعلومات التى لدينا عن المجتمع المكى خلال الخمسين سنة التى سبقت البعثة النبوية، فقد لاحظنا أن الأحوال اتجهت إلى السوء عندما كبرت سن عبد المطلب وهَطل عن العمل ولم يعد قادراً على كبح جماح جماعة القبائل التى تَسَارَعَ فى كيانها الفساد فدفعت المجتمع المكى كله فى طريق التدهور ، وقد كان ذلك المجتمع أول أمره سليماً يتميز بعلامات واضحة من الصحة والسلامة ، وقد رأينا خطوات بناء ذلك المجتمع وخصائصه الأخلاقية التى نبعت من إيجابيات الخلق العربى الجاهلى من ناحية ، ومن اتجاه عبد المطلب بالمجتمع المكى كله نحو الدين . ثم رأينا كيف أن تجمع مكاسب التجارة بين أيدى فريق المال مال بهم إلى الجشع فانطلقوا فى طريق جمع المال ولم يعرفوا لذلك حدوداً وطوَّعوا كل شىء لمصالحهم المادية ، ولما كثر المال بين أيديهم اتجهوا إلى القول بأنهم أفضل من غيرهم زاعمين أنهم حماة الحرم وسدنة الكعبة.

ومن المعروف أن المجتمع عندما يسوده الاتجاه إلى الثراء وجمع المال تتداعى فيه النواحى الإنسانية وتضعف فيه نوازع الخير والفضل ويتزايد فيه الجشع إلى المال وما يستتبعه المال من امتيازات ، ويهون فيه أمر الفقراء والضعفاء ويكثر العدوان عليهم ويضعف سلطان القانون ويغلب النزوع إلى جمع المال والاستمتاع به على كل شىء آخر. ولسنا فى حاجة إلى الإتيان ببراهين على ذلك ولا نتابع كذلك كلام غالبية

مؤرخينا فيما يذهبون إليه من الإسراف فى تشويه صورة الجاهليين ومجتمعهم ظناً منهم أن ذلك يزيد قدر الإسلام والبعثة المحمدية . وهم مخطئون فى ذلك ؛ لأن المجتمع المكى إذا كان بهذا الفساد البالغ الذى يصورونه به وذلك الجهل البيِّن الذى يجعل أئمة الشرك من الكفار فى درجة من الغباء تجعلهم أشبه بالعجماوات ، فإن ذلك يقلل من فضل الإسلام فى الانتصار عليهم.

ولكننا نأتى هنا بآيات من القرآن فيها سور مُبينات عمن يسميهم فى سورة المزمل بـ ﴿ أُولِي النَّعْمَةِ ﴾ (آية ١١).

يقول الله تعالى فى تصوير أشكال هؤلاء المتبطرين المفسدين فى سورة المدثر : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ المدثر ] .

والمفسرون يُجمعون على أن المراد بهذا الوصف الوليد بن المغيرة المخزومى ويقصُّون فى ذلك قصصاً[1] ، وليس من الضرورى أن يكون المراد هنا ذلك الرجل وحده ، ولكنه مثال من هذا الطراز المتعالى المتكبر المغرور بماله ومركزه من القرشيين .

واقرأ الآيات التالية عن موقف هذا النفر من الضعفاء والمساكين :

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [ الفجر ] .

وعن معاملتهم للناس وغِشِّهم فى الكيل والبيع والشراء :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ ﴾ [ المطففين ] .

وفى سورة الـهُمَزة نقرأ :

---

(١) انظر ابن كثير ٨/ ٢٩٢.

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ ﴾ [ الهمزة ] .

وعن النسىء والنسأة وما كانوا يفعلون :

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ⑰ ﴾ [ التوبة ] .

وهنا وعلى ضوء ما قلناه نفهم لماذا سأل رسول الله ﷺ الناس فى أول خطبة الوداع الثانية فى منى يوم النحر عن الشهر والبلد واليوم لكى يثبت مواقيت الحج والوقوف بالمواقف[1] فلا يعود أحد إلى المغالطة فى ذلك . ويؤكد هذا قوله « إن الزمان قد استدار حتى عاد كهيئته الأولى» . والمراد بذلك أن عصراً جديداً من عصور تاريخ الإنسانية - وهو عصر الإسلام - قد بدأ ، وأن الزمان عاد كما كان يوم خلق الله السماوات والأرض ليبدأ من جديد .

والآن وقد أعطينا فكرة عن ذلك الفريق من القرشيين فَلْنُلْقِ نظرة على أحوالهم ومعيشتهم ، فمن المعروف أن التجارة فى ذاتها من أكبر أبواب الرزق ، فما بالك إذا لجأ التاجر إلى الغش والتزوير وغالط فى الحساب وغيَّر فى المُدد وفسد ضميره فلم يتورع عن أكل أموال الناس وإنكارها ! لا غرابة أن ثروات أولئك الناس بلغت مبالغ وأرقاماً عسيرة على التصديق لولا أن البيان عنها جاءنا من رواة يُستبعد منهم الكذب ، ثم إن كلاً منهم يؤيد كلام الآخر .

وانظر مثلاً ما يقوله محمد بن حبيب النسابة فى كتاب المحبر تحت عنوان « أزواد الركب » أى : أولئك الذين يقومون بتزويد القوافل من مالهم ، من أمثال عثمان بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الذى كان يلقب بشارب الذهب وأبيه عمرو بن كعب الذى كان يلقب بالسيال ، وعبد الله بن جدعان الذى بلغ من غناه أن الناس زعموا أنه عثر على كنز ، والوليد بن المغيرة وأبى جهل عمرو بن هشام . وابن حبيب يلقى

(١) الواقدى ، مغازى ٣ / ١١١ .

علينا قصة تعطينا فكرة عن سعة ماله وكرمه على الناس لا من جانب الإنسانية ، بل من باب التعالى والغرور والتباهى بالغنى[1].

## حُروب الفِجَار وآثارها على قريش :

قلنا فيما سبق من كلامنا على الإسماعيلية العدنانية - وهم العرب المستعربة أنهم انتشروا فى الحجاز وشمال الجزيرة ووسطها من الخليج إلى البحر الأحمر ، وهناك خضعوا لسلطان حِمير ، وكان لملوك حِمْير سلطان ضعيف رمزى على عرب وسط شبه الجزيرة ، وكان هذا السلطان يتناقص مع الزمن حتى إذا كانت أواخر القرن السادس الميلادى تاقت نفوسهم إلى التخلص من بقايا هذا السلطان الحميرى الذى كان يتمثل فى تأمين قوافل التجارة الذاهبة من ساحل الخليج إلى الحبشة وخفارتها . وكان ملك اليمن قد ولَّى على بكر وتغلب زهير بن جناب بن هبل الحميرى المشهور فى أيام العرب ، والمراد بتولية ملك حمير إياه أنه اعتبره ممثلاً له ، لأن زهير بن جناب كان فى الحقيقة قضاعياً ولم يكن حميرياً ، وكان من أشراف العرب فى عصره - وهو أواخر القرن السادس الميلادى - وقد تميز فيما يقول الإخباريون بعشرخصال من اجتمعت فيه لُقِّب بالكامل وهى السيادة والشرف والخطابة والشعر والوفادة على الملوك والطب والكهانة والفروسية وكثرة الولد وشرف البيت ، وقد طال عمره وأُثِرَتْ عنه حِكَم كثيرة وأشعار أكثر ، وتوفى فى أواخر القرن السادس الميلادى بعد مولد رسول الله ﷺ وقبل بعثه ﷺ[2].

وعاصر زهير بن جناب هذا كليب بن وائل الفارس المشهور ، وكان سيد بكر ووائل أكبر قبائل ربيعة الضاربة فى شرقى الجزيرة ، وكانت لزهير بن جناب أرض مراع واسعة فكان يتقاضى إتاوة من القبائل التى ترعى فى أرض قضاعة (المراد بعض أرض قضاعة وكانت فى منطقة نفوذه) فى مقابل النجعة والكلأ والمرعى، وأصابهم فى بعض السنين ضيق وجدب ومحل فشكوا إلى زهير عجزهم وأبانوا عذرهم فلم يصغ إليهم ومنعهم النجعة والمرعى أو يؤدوا ما عليهم ، فصبروا حتى كادت ماشيتهم

(١) انظر المحبر ، ص ١٣٧ وما يليها .
(٢) الألوسى ، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٢٤ جـ ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠.

تهلك ، وكانت هيبة الدولة قد ذهبت من نفوسهم ، فلما أصابهم ذلك الظلم - الذى يتنافى مع ما يزعمه له الإخباريون عنه من شرف وشهامة وفروسية - ونقموا على زهير ورجاله فدسوا رجلاً منهم اسمه زبابة من بنى تيم الله وكان فاتكاً وأوعزوا إليه أن يقتل زهيراً . (الفاتك فى مصطلح الجاهليين هو القاتل المحترف الذى يقتل لقاء أجر) وأوصوه أن يقتله غيلة ويتحين فرصة بُعْده عن جنده ، فأتاه زبابة وهو نائم فطعنه ورجع إلى قومه وأخبرهم أنه قتله ، والحقيقة أن السيف مر بجانب البطن ولم يُصِب من زهير مقتلاً .

فلما انصرف زبابة أوعز زهير إلى قومه أن يُظْهِروا موته ويستأذنوا بكراً وتغلب فى دفنه لأن الحادث وقع فى أرضهم ، فلما أذنوا لهم فى دفنه دفنوا ثياباً ملفوفة وفرُّوا به إلى قومهم ، فجمع زهير جموعه وأزمع عقاب بكر وتغلب وسار إليهم وهزم بكراً ثم تغلب ووقع فى أسره كليب ومهلهل ابنا ربيعة ، وولوا على أنفسهم ربيعة والد كليب ومهلهل وهاجموا رجاله واستنقذوا الأسيرين ، لكن زهيراً عاد فانتصر عليهم وألزمهم الأتاوة.

وفى أواخر القرن السادس الميلادى توفى ربيعة بن كلاب وقام بأمر القوم ابنه كليب بن وائل وقد أزمع الانتقام من زهير بن جناب واليمن الذين يناصرونه ، فجمع من استطاع جمعهم من قبائل معد وربيعة وقضاعة ومضر وإياد ونزار ولاقى اليمن وأنصارها فى يوم خزاز وانتصر عليهم ، وكانت هذه نهاية سلطان حمير الاسمى على قبائل شبه الجزيرة .

ولكن العدنانيين لم يستتم استقلالهم بعد ذلك لأن غلبة البداوة عليهم حالت دون اتحاد صفوفهم ، فظلوا بعد ذلك يدينون بالطاعة لمن جاورهم من الدول وذلك لحاجتهم إلى بلاد الحضارة وما لا بد لهم الحصول عليه من الأدوات والآنية والسيوف وسرج الخيل ، ومن هنا فقد طاعوا لكندة أو لخم أو غسان حسب الظروف ، وكانت تلك الطاعة اسمية لا تكلفهم إلا شيئاً قليلاً ، وأهم ما كانت تكلفهم إياه خفارة قوافل تلك الدول أو لطائمها دون مقابل ، وخاصة القوافل الذاهبة إلى أسواق الحجاز والصادرة منها .

ومن هنا نفهم لماذا رحبت تلك القبائل بما عرضه عليها هاشم من الإيلاف ، فقد ربح وربحوا ، والإيلاف كان مرتبطاً بالعصم ، وهى الاتفاقات مع الدول خارج الجزيرة لتيسير التبادل التجارى وفتح الأبواب أمام التجارة المكية إلى الشام حيناً ، وإلى العراق حيناً ثانياً ، وإلى اليمن والحبشة حيناً ثالثاً .

وقد اعتمدنا فى هذا التلخيص المترابط على ما أورده جرجى زيدان فى كتابه القيم : العرب قبل الإسلام [1]. وهو يجعل معركة خزاز أو البيضاء فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، ولكننا نرى أن الأوفق لتسلسل الحوادث أن تكون فى بداية النصف الثانى من القرن السادس أى بعد أيام قصى بقليل وقبل أيام هاشم ، لأن القول أنها كانت قبل سنة ٥٠٠ ميلادية يجعل العهد بعيداً جداً بينها وبين العصر الإسلامى ، وهنا يكون من العسير أن تحفظ ذاكرة العرب أخبار حروب وقعت قبل قرن ونصف من الزمان ، ولهذا عدَّلنا التاريخ على هذا النحو .

ويتصل بيوم خزاز يوم يسمى يوم البيضاء ، والغالب أنه جاء بعد عام الفيل ، فهو فى وقت قريب من يوم خزاز ، لأن يوم البيضاء كان يوماً انتصرت فيه جماعات من المعدية بقيادة عامر بن الظرب العدوانى على مجموعة من القبائل اليمنية أكبرها مذحج كانت تحاول الانتجاع فى أراضى العدنانيين فاجتمعوا ووقفوا فى وجهها ، وفى وجه أى تقدم للقبائل اليمنية من الجنوب .

وإنما استطردنا مع هذه التفاصيل لننتهى إلى حرب الفجار وهى مدار هذه الفقرة من بحثنا لنقول إن حروب الفجار كانت جزءاً من حركة وعى عام وشعور بالذات شمل العدنانية جميعاً نتيجة لتكاثر عددها وازدياد قوتها وتحسن أحوالها نسبياً ، وكان لانتظام التجارة واستقرار أسواقها أثر بعيد فى ذلك فإن دبيب الحياة فى الطرق الرئيسية التى نظم أمرها القرشيون كان حرياً أن يبعث الحياة فى الطرق التجارية الثانوية التى تمر بمنازل القبائل فى داخل الجزيرة ، ومن المعروف أن التجارة ليست مجرد تبادل تجارة بل تبادل أفكار ومظاهر حضارية وثقافية ، وانتظامها وازدهارها

---

(١) جرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، طبعة جديدة بمراجعتنا وتعليقاتنا (بدون تاريخ مكتوب عليها ولكنها كانت سنة ١٩٥٧) ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

يؤدى إلى وعى بشرى ونهوض حضارى يصل إلى آفاق لا تُصدَّق ، ومن أكبر العوامل التى أدت إلى النهضة الأوروبية كان انتظام التجارة ونهوضها ونشاطها فى البحر المتوسط ، وانتظام تجارة هذا البحر زاد فى ثروات الجمهوريات والممالك الإيطالية وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والجزر البريطانية وتقدم صناعة السفن وفنون الملاحة البحرية وعمل الخرائط ، وهذا كله أدى فى النهاية إلى كشف العالم الجديد وما أعقبه من تغير حاسم فى تاريخ البشر.

ومعظم ما تذكره الكتب من أيام العرب راجع إلى تلك الفترة الزمانية ، وهى فى ذاتها فترة وعى القبائل وإحساسها بنفسها ، وإذا نحن تأملنا تفاصيلها نجد أنها من الناحية العسكرية لا تكاد تذكر ، فحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان وهى الحرب الطويلة التى ظهر فيها أمر عنترة العبسى لم تسفر إلا عن خسائر لا تزيد على أصابع اليدين فى الجانبين ، وفى النهاية ملَّتْ القبيلتان القتال وتصالحتا ، وتولى الصلح بين الجانبين رجل من الحكماء ودُفِعت ديات قليلة وانتهى الأمر .

وحروب الفِجَار التى نحن بصددها جزء من ذلك الوعى العربى الهام ، وأسبابها - كما ترويها المراجع - تبدو نزاعات صبيانية ولكن الحقيقة أن السبب الرئيسى هو غيرة قبائل قيس عيلان من قريش لما بلغت من الثروة والازدهار بفضل التجارة ، وكان شريان رئيسى من طرق التجارة ، وهو الطريق من مكة إلى العراق يمر بمنازل قيس عيلان ، فأرادت بعض بطونها (من هوازن) إيقاف تجارة قريش ، وتعمدت حادثاً صغيراً لإثارة الحرب ، فاستعانت قريش بكنانة (أمها) وأمكن فى النهاية حصر القتال وإيقاف أعمال العداوة ، وتلك هى حرب الفِجَار الأولى ، وإنما سميت بحرب الفِجَار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، فكانت إما فى رجب ، أو فى ذى القعدة، أو ذى الحجة ، أو المحرم .

وحرب الفِجَار الثانية أيضاً كانت بين قريش وكنانة فى جانب وبعض قبائل قيس عيلان فى جانب يتزعمهم عروة بن عامر الكلابى وهذه الحرب مؤرخة ، لأنها كانت ورسول الله ﷺ شاب فى العشرين وقد حضرها وقال إنه كان يجمع السهام التى

يطلقها العدو ولا تصيب ويناولها لأعمامه ، وتقول الأخبار : إن رجلاً خليعاً فاتكاً يسمى البراض الكنانى عرض على النعمان بن المنذر بن قابوس سيد بنى لخم أو ملك المناذرة كما كان يسمى أن يقود لطيمة له كانت ذاهبة إلى سوقى عكاظ وذى المجاز فَكَبُر ذلك على عروة الكلابى سيد بنى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة وأَنِف أن يجيز هذا الكنانى الخليع القتال لطيمة النعمان ، وتواعد البراض ، ولكن البراض غدره وقتله فثارت الحرب بين بطون بنى قيس عيلان من ناحية وقريش وكنانة من ناحية أخرى ، وكان يرأس قريشاً فى ذلك الحين - كما تقول النصوص - حرب بن أمية سيد بنى عبد شمس وهو والد أبى سفيان وكادت كنانة وقريش أن تُهزما حتى هرب رجالها واقتحموا الحرم طلباً للنجاة ، ولكن حرب بن أمية نادى رجال قريش فبرز منهم عمرو وسفيان وأبو سفيان وأبو حرب وعتبة بنو أمية الأكبر بن عبد شمس وهم المسمَّوْن بالعنابس لأنهم ثبتوا ثبات الجبال فى ذلك اليوم ، وانضم إليهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويص، وهم المسمون بالأعياص أى الذين يستعصون على أن يقودهم أو يسودهم أحد ، وقد تمكن هؤلاء من كسب النصر لقريش وكنانة وارتد بنو كلاب ومن معهم من قيس عيلان منهزمين .

وفى فرار كنانة وقريش فى أول هذه الحرب ولجوئهما إلى الحرم يقول شاعر يسمى خداش بن زهير ، وكان اللقاء أولاً فى نخلة :

يَا شِدَّةً مَـا شَدَدْنَـا غَيْرَ كَاذِبَـةٍ  عَلى سَخِينَةَ لَوْلَا اللَيلُ والحَرَمُ

(ويشكل اللفظ الأخير الحُرَم) وكانت العرب تسخر من قريش وتسميها سخينة ، والسخينة لون من العصائد يُعمل من الدقيق ويُؤكل ساخناً ، وكان العرب نادراً ما يأكلون طعاماً ساخناً ، فأنكروا على قريش كثرة أكل السخينة ، مع أن السخينة لم تكن طعاماً ممتازاً ، إنما كان يؤكل ساخناً .

وفى هذه الفجار الثانية أيضاً ظهر أمر عبد الله بن جدعان فقد زود مائة مقاتل بالخيل والسلاح من ماله سوى من ألبس من قومه وانضمّت الأحابيش إلى قريش وعلى رأسهم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، وكان اللقاء الأخير فى موضع يسمى شَمَطة قرب عكاظ وكذلك غير بعيد عن نخلة الشامية موضع اللقاء الأول ،

واجتمعت من قيس عيلان بنو سليم بن منصور وبنو عامر بن صعصعة وبقية هوازن ، وكان اللقاء عنيفاً دامياً خسر فيه القيسيون ما بين مائة وثمانين قتيلاً ولم يُقتل من قريش وكنانة والأحابيش أحد ، ويبدو أن هذا النصر لم يتم إلا بعد لقاءات أخرى فى موضع يسمى العبلاء وموضع يسمى الحريرة ، وفى هذه اللقاءات قتل أبو سفيان ابن أمية الأكبر وهو غير أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية الذى سيكون له دور كبير فى تاريخ قريش فى الإسلام ، وفقدت كنانة ثمانية من رجالها ، وقد استقرت قدم قريش فى ذلك اليوم وثبت أمر بنى أمية الأكبر ، وكان لبنى المغيرة وهم مخزوم دور كبير أشاد به ابن الزبعرى شاعر قريش [1].

وقد اكتفيت هنا بموجز الأحداث دون استطراد مع التفاصيل لأن غالب ما لدينا منها مبالغات وقصص وأشياء وُضِعت بعد الإسلام ، ثم إن جرجى زيدان فصَّل أمرها تفصيلاً جيداً وزدنا عليه فى تحقيقنا له تعليقات نافعة . والمهم لدينا هى النتيجة : فقد استقرت قريش وثبتت أقدامها وازداد جاهها ، وظهرت من بين بيوتها بيوت الأحلاف المناهضين لبنى هاشم ، وجدير بالذكر أن بنى هاشم كانت لهم الرياسة الشرفية متمثلة فى الزبير ثم أبى طالب ابنى عبد المطلب ، ولكن الآخرين تخطوهم وظهروا عليهم وأصبحت لهم الرياسة الفعلية فى مكة وإن لم يتعرضوا لبنى هاشم فى رفادتهم وسقايتهم .

استبد إذن أهل القوة والمال بأمور مكة والحرم والحج ، ولم يجدوا أمامهم قوة تردعهم فبسطوا سلطانهم على كل شىء وبسطوا أيديهم على الناس ، فازدادوا ثراء وقوة وازداد الضعفاء بؤساً وفقراً ، وسادت مكة حالة من عدم الرضا والتذمر أو عدم الرضا الاجتماعى أو ما يسمى باسم Malaise وتزايدت أعداد المستضعفين وهم الذين يعيشون دون حماية من قانون أو أخلاق أو عرف اجتماعى محترم . والزعامة الفعلية القرشية لم تعد زعامة النشاط والاجتهاد والعمل لما فيه صالح الجماعة ورعاية التجارة والحج وخدمة المجتمع العربى كما كان الحال من قصى إلى عبد المطلب ، بل

(١) انظر النويرى ، نهاية الأرب جـ ١٥ ص ٤٢٣ وما بعدها . وجرجى زيدان ، تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٧١ وما بعدها .

أصبح المجتمع كله فى خدمة جماعة بعينها من الناس من أصحاب المال والجاه وأهملت القواعد الأخلاقية والأسس المعنوية التى قام عليها ذلك المجتمع المكى القرشى والحجازى عامة . وسنتعرض لهذه الحالة فى الفصل التالى الذى ندرس فيه موقف قريش من الإسلام .

والآن نلقى نظرة على المجتمع المكى تحت قيادة قريش وهو فى ذروته غِنىً وازدهاراً ، ونلم بما كان للتجارة والأسواق والحج من أثر بعيد فى تطور اللغة العربية والفكر العربى عامة.

## المجتمع القُرشى فى أوجهِ قبل الإسلام :

لا تصرفنا النواحى السلبية لذلك المجتمع المكى القرشى عن الالتفات إلى نواحيه الإيجابية ، فإن الغِنَى الذى وصلت إليه بيوت بنى عبد شمس ومخزوم وسهم وجُمَح وناس أفراد من بيوت قرشية أخرى كانت له نواحٍ إيجابية لا بد من الإلمام بها حتى تكتمل لنا صورة قريش فى أَوْجِها قبل الإسلام .

ذلك أن وفرة المال فى أيدى هذا النفر من القرشيين جعلت مكة ، ذلك البلد الذى يقوم بوادٍ غير ذى زرع فعلاً ملتقى تجارات العالم وصناعته كلها ، وإذا كان - كبار المكيين قد ظلوا من ناحية المظهر قريبين من البدو فى مظهر حياتهم ، فإن خيرات الدنيا كانت عندهم . حقاً إنهم لم يتخذوا القصور أو مظاهر الترف المفسد الفاسد الذى كان شائعاً فى عواصم الدولتين الكبيرتين اللتين سادتا تاريخ ما يُعرف بالشرقين الأوسط والأدنى وبقية أوروبا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ولكن كل شىء كان فى بيوتهم : كانوا يملكون مبالغ ضخمة من دنانير الذهب ودراهم الفضة ، وكانت لديهم أقبية الحرير والصوف والخز وكانت لهم الضِّياع والبيوت فى مكة نفسها وفى الطائف وتبالة ونجران وتيماء وحوران حتى بصرى وغزة .

وقد حرص كبار المكيين على أن يكون لكل منهم حائط أو بستان فى الطائف حيث يقضون الصيف وما شاءوا من شهور السنة فى حياة رخية يسودها الكسل والشعور بالامتياز عن الناس ، وكان العباس بن عبد المطلب وهو من الهاشميين القلائل الذين

دخلوا عالم التجارة وجمعوا أموالاً طائلة ويملك ضيعة فى جنوب الشام تسمى بقبش أو بقيش ، وكان تجار العطور من المكيين يعرفون أغلى عطور العصر وأنفسها من المسك والذُّريرة والغالية .

ويعطينا محمد بن حبيب فى المحبر صورة دقيقة لأبى جهل عمرو بن هشام وهو فى فسطاطه يطعم الناس ، وقد بسط أنطاعاً على الأرض وُضِعت عليها جفان الثريد مع اللحم ودُعِى الناس للأكل فدخلوا دون هرج وأصابوا ما شاءوا من الطعام[1]، وقد عاصر أولئك الأجواد القرشيين أجوادٌ من قبائل عربية غير قريش، ويلاحظ أن الكثيرين من الأجواد غير القرشيين هؤلاء كان فى بعضهم ميل إلى الخير، فمثلاً كان هناك رجل من بنى مجاشع يسمى صعصعة بن ناجية يشترى البنات من آبائهن ليحميهن من الوأد ، وفى فصل أجواد قريش من كتاب المحبر الذى أشرنا إليه أمثلة من هذا الطراز .

ورغم تميُّز الكثيرين من رؤساء العرب على القرشيين فى فضائل الجود والكرم فإن قريشاً كانت تزعم لنفسها امتيازاً على بقية العرب بفضل وجود الكعبة فى ديارهم وقيامهم بأمرها . ويحاول بعض مؤرخينا تمييز القرشيين على غيرهم بخصائص الحلم والجود والذكاء وبُعْد النظر ، ولكن هذه كلها مبالغات سببها النظرة الرجعية التى أشرنا إليها ، فكأنهم يأخذون من مجد قريش بعد الإسلام ويضيفون إليها قبل الإسلام حاسبين أن ذلك تأصيل لمجد قريش بعد الإسلام . يرون فى ذلك تصديقاً لما قال به - فى زعمهم - الرسول أن قريشاً أفضل العرب ، أو أن القرشى يعدل غيره من العرب مرتين ، أو أن قريشاً أَوْلَى الناس بإمامة المسلمين ، وما إلى ذلك مما لم يقله الرسول ولا يمكن أن يقوله ، لأن أى قول يصدر عن الرسول ينبغى أن يكون له أصل فى القرآن ، والقرآن لا يفضل إنساناً على إنسان إلا بالتقوى .

ولكن القرشيين فعلاً تميزوا بالبديهة الحاضرة وسرعة الجواب وحسن التصرف فى الخطاب ، وهذه بالذات هى الخصائص الذهنية التى تتأتى من التجارة فإن التاجر بحكم صنعته لبق متصرف فى الكلام يحسن تزيين ما يبيع ، وهذا شىء يختلف تماماً

(١) المحبر لمحمد بن حبيب ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وانظر باب أجواد العرب فى الجاهلية كله ابتداء من ص ١٣٧ .

عما زعمه بعض الكُتَّاب المسلمين من أن قريشاً أرجح العرب أحلاماً أو أنهم كانوا أحلم الناس ، لأن الحقيقة أن عرباً آخرين كثيرين كانوا يرجحون القرشيين فى الحلم .

وتميز القرشيون كذلك فى نظر الأعراب فى شبه الجزيرة بأنهم كانوا أصحاب نظام سياسى قائم يقارب ما عرف بعضهم من أحوال الدول خارج شبه الجزيرة ونظمها ، ورغم الخصومات التى كانت قائمة بين بيوت المكيين إلا أنهم تميزوا فعلاً بالوقوف جبهة واحدة أمام غيرهم ، وهذا شعور بالتساند لم يعرفه أى قبيل آخر من العرب فقد كان القرشيون يبدون للناس قبيلاً واحداً ويهبُّون جميعاً للدفاع عن مصالح قبيلهم إذا دهمهم خطر ، وقد رأينا ذلك فى حروب الفِجَار .

ولكن الامتياز الذى اعترف به العرب جميعاً لقريش كان امتياز الغنى والمال ، وقد كان بعض رؤساء العرب يملكون من الإبل والخيل والماشية فوق ما ملك كبراء قريش ولكن ثروة القرشيين كانت ذهباً وفضة وعروضاً أى أشياء ذات قيمة مالية فعلية كالأقمشة والعطور والصمغ واللبان والقرفة والتوابل وما إلى هذا من الأشياء التى كانت فى تلك العصور تعدل الذهب والفضة ، وثروة الإبل والنخيل والماشية لا تعطى صاحبها قوة على غيره ، لأنه - أولاً - لا يستطيع حمايتها من البدو إلا بالسماح لهم بأن يصيبوا منها ما تمس إليه حاجتهم عند الضرورة ، وإلا فكيف يستطيع رجل أو قبيلة - حراسة ألف ناقة ترعى فى منازل القبيلة ؟ وكيف يمكن حماية ألف نخلة مثلاً تمتد على مسافة تتراوح بين ثلاثة كيلو مترات وخمسة ؟

ولهذا فقد كانت ثروة الإبل والماشية والنخيل ثروة جاه وسؤدد ومجد ولكنها ليست ثروة قوة يستطيع صاحبها أن يستخدم بها الناس أو يرغمهم على طاعته ، فى حين أن ثروة المال ثروة « مركَّزة » فى صورة ذهب وفضة وما يشابههما من حيث قلة المساحة التى تحتلها ، فهى ثروة يمكن حمايتها والتصرف فيها واستعمالها فى استخدام الناس مثلاً أو سيادتهم . وهنا حيث يوجد الذهب والفضة يوجد الظلم والاستبداد والاستغلال ، ولهذا وُجِد الظلم فى بلاد الرومان والفرس نتيجة لوجود ثروات الذهب والفضة عند الملوك والأمراء ورجال الدول والأغنياء وذوى الجاه . ولم يوجد الظلم فى جزيرة العرب لعدم وجود الثروة المركزة التى يمكن خزنها وحفظها واستخدامها فى استئجار الجند مثلاً .

وقد كانت قريش تملك المال ، فقد قُدِّرت ثروة الوليد بن المغيرة بما يقرب من مائة ألف دينار وثروة هشام بن المغيرة والد أبى جهل بما يقارب ذلك ، وثروة أبى أحيحة سعيد بن العاص كانت تصل إلى حوالى مائتى ألف دينار إذا أضيف إليها ما كان لديه من عروض . وكانت القافلة الواحدة من كبار قوافل المكيين وواحدتها العير - تتكون - من ألف جمل محملة بالبضائع ، ورأس المال المستخدم فيها يقرب من خمسين ألف دينار فى زمان كان الدينار يشترى زوجاً من الإبل ، وكان الرجل وأهل بيته يحتاجون إلى ما بين درهم ودرهمين فى اليوم ليعيشوا فى سعة . حقاً كان كثيرون من أوساط القرشيين يشاركون فى العير بالدنانير العشرة وربما الخمسة ، ولكن الرجل الذى كان يملك عشرة دنانير يستخدمها فى التجارة خارج مطالب حاجته كان يُعَد فى المياسير فما بالنا بمن كان يملك الألوف إلى جانب الحوائط ( البساتين ) فى الطائف وغيرها ؟

كان القرشيون متميزين على غيرهم من العرب بالغنى من هذه الناحية ، وتميزوا كذلك بكل ما يجره المال من سلبيات مثل الجشع والطمع والرغبة فى زيادة المال وتثميره ولو على حساب الآخرين . من هنا عُرِف القرشيون بالربا والمغالطة والتطفيف والإخسار فى الكيل والميزان والقياس ، وكان هذا يثير غضب الأعراب الذين لم تكن تنقصهم الحوافز لكراهة الأغنياء فضلاً عن المرابين والمستغلين ، وهذا كان شعوراً عاماً عند كثير من العرب نحو القرشيين وجَمَّاعة المال بصفة خاصة .

والبيتان التاليان مثال على ما كان يقال عن قريش :

أَلْهى قريشاً عن المجدِ الأساطِيرُ ورشوةٌ مثلما تُرْشَى السَّفَافِيرُ

وأكلها اللحمَ مَحْضاً لا خليطَ لهُ وقولُها ذهبتْ عِيرٌ أتتْ عِيرُ

والرشوة عند الجاهليين هى كل مال حرام سواء أكان إتاوة زائدة أو رباً أو مالاً مسروقاً ، أو مالاً مقدماً لإفساد الخلق .

بل زعم بعض العرب أن قريشاً تتحدى الآلهة بمالها غير مُقَدِّرة لها حرمة :

زَعَمتْ سَخِينةٌ أنْ ستغلِب ربَّها ليغْلِبـنّ مُغَـالِـبُ الغُـلّاب

ولكن مركز قريش بين العرب ظل على ما هو عليه ودون تغيُّر ؛ لأن التدهور الذى

أشرنا إليه كان داخلياً لم يظهر للناس على حقيقته إلا عندما جاء الإسلام وتهددت قريش بسبب الدعوة المحمدية بالتصدع ، لأن الدعوة الإسلامية أظهرت وجوه التدهور فى المجتمع المكى ، وعندما كثر المسلمون أصبحت فى مكة جبهة معارضة قوية ضمت المستضعفين ونفراً من الساخطين على سيطرة قريش . ووقف بنو عبد المطلب وبنو المطلب عمه إلى جانب محمد والإسلام لا إيماناً بالإسلام بل حملتهم على ذلك العصبية فى الغالب ، وظن أصحاب حلف الأحلاف أن الدعوة المحمدية دعوة هاشمية هدفها إعادة ميزان القوى لصالحهم فازدادوا عناداً للإسلام كما سنرى فى الفصل التالى ، ولكن مركز قريش داخل مكة انتابه الوهن ، وكان هذا من الأسباب التى حفزت خصوم الإسلام على مزيد من التماسك ، فاشتدت المعارضة للإسلام وتزايدت حتى تمكن القرشيون من إيقاف تقدم الإسلام داخل مدينتهم واطمأنوا إلى ذلك ، وظلت لقريش فى مكة مكانتها فى عالم العرب ، ومضت قريش فى طريقها زعيمة لقبائل العرب فى مسائل التجارة والدين ، ولم يتغير هذا الوضع تغيراً محسوساً حتى الهجرة النبوية إلى المدينة .

ونتابع دراسة بقية نتائج الزعامة القرشية بين القبائل العربية فنقول : إن قريشاً عندما وصلت إلى هذه المكانة وأصبحت أغنى قبائل شبه الجزيرة وأكثرها سلطاناً فى مسائل التجارة والدين أظهر رجالها كياسة ومهارة ضمنت لهم استمرار هذا التميز ، فهم مثلاً لم يفخروا بمالهم على غيرهم من القبائل ، ولا هم استخدموا المال أو الإشراف على شئون الكعبة والحج مجالاً للفخر على غيرهم ، وإنما هم استمروا يحسنون معاملة الوافدين على بلادهم من كبار أهل القبائل وإكرامهم والاحتفال بهم، وفى مكة فى موسم الحج وفى أسواق الحجاز كان زعماء القرشيين يجتمعون بكبار أهل القبائل على بساط المودة ، وهذا مظهر من مظاهر مهارتهم التجارية .

ومن أظهر الأمثلة على كياسة القرشيين أنهم عندما احتفظوا لأنفسهم بولاية الكعبة وموسم الحج تركوا ولاية سوق عكاظ والقضاء فيه لتميم ، ويسمى هذا عند محمد بن حبيب فى المحبر : «عكاظ على حدة والموسم على حدة» [1] والبيان الذى

(١) محمد بن حبيب ، المحبر ١٨٢ .

يعطينا إياه محمد بن حبيب عمن تولى سوق عكاظ والقضاء فيه يلاحظ منه أنهم لم يكونوا جميعاً من تميم بل اشترك فيه ناس من مجاشع ، والظاهر أن المراد بالموسم فى عكاظ هو رياسة الذاهبين للحج من عكاظ ، وكانت قريش - كما رأينا - قد اقتصرت فى الحج على مزدلفة لا تتعداها إلى عرفات ، فى حين أن بقية العرب كانوا يقفون عند عرفات ، ولهذا فقد كان الناس من غير قريش فى حاجة إلى رئيس للموسم يفيض بالناس من عرفات ، فإذا وصل الناس إلى المزدلفة واستمروا إلى بقية مناسك الحج دخلوا الحرم ، وهنا تكون الرياسة لقريش.

## أثر انتظام التجارة والحج فى النموّ الحضارى لقريش وتطوّر اللغة العربيّة :

خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - وهما اللذان شهدا معظم الحوادث التى نتناولها فى هذه الدراسة ظهرت اللغة العربية فى صورتها النهائية التى ثبتت عليها بعد ذلك دون تغيير يُذكر عبر القرون ، وذلك بفضل القرآن الكريم الذى نزل بها ، فكان نزوله بها بركة عليها ، فإن المسلمين حرصاً منهم على المحافظة على القرآن بألفاظه ومعانيه جعلهم يحرصون على المحافظة على اللغة العربية فى صورتها التى كانت عليها أيام نزل فيها القرآن الكريم .

ومن الواضح أن اللغة العربية لكى تصل إلى تركيبها الكامل لفظاً وتركيباً ونَحْوًا، لابد أن تكون قد خلَّفت وراءها قروناً طويلة من التطور والتنقل من موطن لموطن حتى اكتمل نضوجها وتكوينها فى الحجاز منذ بدايات القرن الخامس الميلادى، إذ أن أقدم شواهد هذه اللغة الباقية إلى اليوم لا يمكن أن ترجع إلى ما قبل القرن الخامس الميلادى.

ونظراً لأن أصول اللغة العربية وتكوينها وتطورها تمت كلها فى مناطق صحراوية ونصف صحراوية لا يعرف أهلها التدوين ، ولا تعمر فيها المدوَّنات طويلاً بسبب جفاف الجو ، فإن تاريخ اللغة العربية ظل إلى يومنا هذا سراً مغيباً فى تضاعيف الزمن ورمال الصحارى وصخورها. وقد بذل العلماء جهوداً مضنية فى تتبع أصول العربية،

وفى وقت ما من القرن التاسع عشر الميلادى اجتمعت جهود عشرات من أعاظم الأثريين وعلماء الكتابات على الأحجار وغيرها (paleographers, epigraphers) من بلاد الغرب كله وتضافرت للكشف عن سر اللغة العربية ، وخلفوا لنا مؤلفات ذات قيمة علمية كبرى ، ولكن النتائج التى وصلوا إليها جِدّ قليلة ولا تتناسب قط مع الجهد المبذول فيها ، وفى نهاية هذه الفقرة من بحثنا سنورد ثبتاً بأهم تلك الأعمال .

وأقدم ما عثرنا عليه من معالم العربية حوالى ٤٠ اسم علم وردت فى نص سريانى يتكلم عن قتال دار بين الأشوريين والعرب على الحدود الشمالية لشبه الجزيرة ، ويُذكر العرب فى هذا النص باسم عربيى أو عروبو أو عُرْبى ، وقد نشر هذا النص كالاغان : O'Callaghan, Aram Nahrain, 95 .

ويرجع تاريخ هذا النص إلى الفترة بين ٨٥٣ و ٦٢٦ قبل الميلاد ، ثم عُثر بعد ذلك على نصوص أخرى ترجع إلى نفس الفترة ونشرها T. Weiss Rosmarin فى مجلة مدرسة الأبحاث الشرقية فى لندن JSOR سنة ١٩٣٢ ص ١-٣٧ وأعاد نشرها وتحقيقها فريتز هومل F. Hommel : Ethnologie und Geographie des Alten Orients, 1926, pp . 578-589. وقد ذهب Landsberger وBauer فى بحث نشراه فى مجلة الدراسات السريانية Zeits- chrift der Assyriologie سنة ١٩٢٧ إلى أن أسماء الأعلام الواردة فى النص آرامية ، وقد نقض هذا الرأى B. Moritz وPaul Haupt فذهبا إلى أن المراد بلفظ أرمو فى النص هم العرب . ومن أمثلة هذه الأسماء حَمْدَان وزبيد وخَزَعِلُ ، وهى صور قديمة لأسماء عربية معروفة ، وهذا أول ذِكْر لعرب فى نصوص التاريخ .

وقد عثرنا فى نصوص ترجع إلى فترة قريبة من هذه على أسماء أعلام عربية فى نصوص وُجِدت فى ناحية دِدان قرب مدينة العلا الحالية ، وفى نصوص لحيانية من بينها اسم مسعود . وقد جمع هذه النصوص وحققها وترجمها وعلّق عليها علماء آخرون منهم :

Jaussen et Savignac, Mission archéologique en Arabic, 1904 -

Winnett, Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions .

. 1914,pp.363-634 مجلة Museon سنة ١٩٣٧ ص ٢٣٩ وغيرها .

وإنما أشرنا إلى هذه النصوص لأنها تتضمن أول ذكر مكتوب ومنقوش للعرب ، ومن الواضح أن العرب وُجِدوا منذ الزمن القديم فى جزيرتهم ، ولكن اتصالهم بالعالم الخارجى كان قليلاً ، وهذه بعض شواهده .

ومنذ القرن الرابع قبل الميلاد يكثر ذكر أسماء الأعلام العربية فى النصوص النبطية وترد الأسماء كذلك فى النصوص التدمرية التى ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد وتتوالى بعد ذلك النصوص التى يرد فيها ذكر لأسماء أعلام عربية وهى أشورية وأكادية وعبرانية وسريانية ويونانية ولاتينية ، ويستوقف النظر فى ألوف أسماء العرب التى وُجِدت فى هذه النصوص أنها تدل على ثبات صور تلك الأسماء على مر العصور.

وقد استنتج الباحثون من تلك النصوص أن اللغة العربية القديمة كانت لغة جُرْهُم ، وهى إحدى قبائل العرب البائدة التى تخلفت عنها قبيلة اندرجت فى عداد العرب المستعربة وكان لها ذكر فى تاريخ العرب قبل الإسلام هى المسماة بِجُرهُم الثانية ، وقد ورد ذكرها فى هذا البحث . وقد أورد أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٨م . نحو ثلاثين شاهداً من لهجة جرهم هذه فى كلامه عما دخل القرآن من الألفاظ بلهجات القبائل العربية .

وقد كانت للعرب البائدة لغة ولا شك ، وقد أورد الرواة بعض ألفاظ تخلفت عن قبائل العرب البائدة تعطينا فكرة عنها ، وهذه الألفاظ قريبة فى مبناها من أسماء الأعلام التى وردت فى النقوش الآنفة الذكر ، وهذه وتلك هى كل ما بقى لنا من العربية العتيقة ، أو ما سماه الباحثون باسم Ur-Arabish .

وعندما دخل العاربة اتخذوا هذه اللغة وتكلموها بلهجات مختلفة ، وبعض هؤلاء العاربة أوغلوا فى الصحراء من الجنوب حاملين معهم لهجاتهم ، وهى لهجات من العربية القديمة أو السبئية أو القتبانية ، وكلها متقاربة لأنها كلها من أسرة لغوية

واحدة، وفى كلام ياقوت عن جبلى أجأ وسَلمى يقول (١/ ١٣٧ من الطبعة الأوروبية): إن طيئاً عندما هاجرت من الجنوب استقرت فى الجبلين المنسوبين إليها وإن جد هذه القبيلة المسمى طىء وُجِد فى جبل أجأ شيخاً هرماً قال له : « نحن من بقايا صحار ، غنينا بهذين الجبلين عصراً بعد عصر ، أفنانا كر الليل والنهار » . وطىء كما ذكرنا من جماعات العرب العاربة التى انتشرت فى شبه الجزيرة بعد خلائها بفناء معظم البائدة وقد أخذوا ما وجدوه من بقايا لهجات البائدة وبنوا عليه .

ويؤخذ من كلام اللغويين العرب أن العربية القديمة كانت لها لهجتان رئيسيتان ، لهجة أهل غرب الجزيرة ولهجة أهل شرقها . ولدينا شواهد من لغة قضاعة - وقضاعة كما انتهينا إليه فى هذا البحث هى إحدى جماعات العرب العاربة - وهى وطىء والأزد أكبر جماعات أولئك العرب العاربة وكانوا أقرب إلى الشعوب ، لأن البلاد كانت لا تزال تحتفظ بشىء من خضرتها ، فالسهول كانت أراضى استب أى حشائش قصيرة ، أما نواحى الجبال والمرتفعات من مثل جبلَى طىء وبلاد السراة والجبل الأخضر فى عمان فكانت غنية بالزروع والمياه والأشجار .

ويقول ياقوت فى كلامه عن جبلى طىء: « ونظر عمرو بن طىء - والمفروض هنا أنه رجل - إلى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخل والريف ، فرجع إلى أبيه وأخبره ، فسار طىء بإبله وولده حتى نزل الجبلين فرآهما أرضاً لها شأن » .( ياقوت مادة أجا ) وهذا الكلام يمكن أن يقال عن جبال السراة أو سراة غامد فى منطقة عسير الحالية والجبل الأخضر فى عمان وجبلى طىء وهما اليوم جبال شمَّر ، فهذه وأمثالها كانت دائماً مواطن عامرة بالناس وما يقول ياقوت من أن طيئاً وجد جبلى أجأ وسلمى خاليين من السكان مستبعد ، والغالب أن طيئاً أقامت فى الجبلين من زمن طويل لأنها من جيل العرب العاربة كما قلنا ، شأنها فى ذلك شأن قضاعة والأزد .

وقد سبق أن نبهنا إلى أن كُتَّاب العرب تركوا مسألة العرب العاربة مبهمة لأنهم لم يعرفوا التطور الجغرافى والسكانى لشبه الجزيرة ، فقالوا دون اتفاق بينهم أو دليل : إن العاربة هم مهاجرة اليمن من الجنوب وأهل اليمن عرب منذ البداية : عاصروا البائدة

والعاربة وكانت لهم هجرات وامتدادات بعد استئناس الجمل وعودة العمران إلى وسط الجزيرة وشمالها ، ولكن ليس إلى الحد الواسع المدى الذى يريدون أن يقنعونا به، فلا قضاعة كانت يمنية ، ولا طىء ولا لخم ولا غسان ولا كل خزاعة كما رأينا ، وقد آن الأوان فيما نعتقد لأن نتخلص من الكثير من أوهام ابن الكلبى وأمثاله فيما يتعلق بأصول القبائل العربية .

وأصول العربية ترجع بلا شك إلى اليمن . وقبائل البائدة والعاربة أخذوا بقايا العربية عند انتشارهم فى الجزيرة العربية وساروا بها إلى الأمام ، وقضاعة بالذات كان لها الأثر البعيد فى ذلك التاريخ ، فقضاعة كانت وتداً عربياً فى بلاد الشام وعلى مشارف الجزيرة الشمالية ، وفى بلاد قضاعة أخذت العربية ألفاظاً كبيرة من العبرية والآرامية وقد أثبت أ . كوهين فى بحث نشره فى الدورية اليهودية سنة ١٩١٢ أى قبل أن تقع الواقعة بيننا وبين الصهيونية بحثاً له قيمته حافلاً بتلك الشواهد .

A. Cohen, Aramaic Influence on Arabic, Jewish Quarterly Review, 1912.

حيث نجد الأصول الآرامية لبعض العبارات التى أوردها اللغويون العرب من لهجات قضاعة وطىء وعبد القيس وغيرها ، وانظر :

S.Fraenkel , Aramaische Fremdwörter im Arabisch, 1886.

وقد أيدت بحوث علماء آخرين من أمثال H.Mueller وكارل بروكلمان ونولدكه الآراء التى تقول بأن اللهجة العربية التى تكونت وانتشرت بين عرب الشمال والوسط هى اللهجة الرئيسية التى نمت وازدهرت فى نجد وأصبحت الأصل البعيد للعربية الفصحى ، وهذه اللهجة أخذت الكثير من الألفاظ اللاتينية والسريانية والفارسية واليونانية - بالإضافة إلى الحبشية ، وأدخلته فى صميم اللغة الفصحى ومن أمثلة ذلك ألفاظ قنطار ( فى السريانية قنطيرة ، وهذه من اللاتينية Centenarius أى وزن مائة رطل ) ومنديل (من السريانية منديلة) وهذا من اليونانية Uasndn (منديل) ، ولفظ صراط من اللاتينية Strada ( الطريق ومنه الإيطالية Strade

والألمانية Strasse والإنجليزية Street ) ، وقصر ( من اللاتينية Castra وهى الحصن ثم أطلق على كل بناء بالحجارة ) ، وغير ذلك كثير . وكل هذه دلائل على حيوية اللغة وقوتها ، فإن اللغة الحية القوية تأخذ من غيرها وتعطى ما دامت جارية على الألسن مستعملة ، (وانظر فى ذلك كتاب المعرب للجواليقى ، بتحقيق إدوارد سخاو فى ليدن ، وانظر فى ذلك كله كتاب فوك Fück المشهور عن العربية ، وقد تُرجِم إلى العربية لتتبع هذا التاريخ) .

وقد جمع د. ناصر الدين الأسد فى كتابه: «مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية» ( الطبعة الأولى - دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٦ ) وهو من أمهات الأبحاث الحديثة فى تاريخ اللغة والأدب العربيين التى يمكن أن نسميها بكلاسيكيات الدراسات العربية الحديثة التى ينبغى أن نعطيها نفس الأهمية التى نعطيها لكلاسيكيات الأصول العربية مثلها فى ذلك مثل : « الاشتقاق » لابن دريد ، و «المعرب» للجواليقى ، و«المصاحف» لأبى داود السجستانى وما إليها ، ومثل كتاب ناصر الأسد هذا كتاب « أسواق العرب » لسعيد الأفغانى ، و « بلوغ الأرب » لمحمود شكرى الألوسى ، و « تاريخ العرب قبل الإسلام » و « تاريخ الأدب العربى » لجرجى زيدان و « تاريخ الأدب العربى » لشوقى ضيف بمجلداته العظيمة القيمة ، وأبحاث عالم الجزيرة للشيخ حمد الجاسر وتحقيقاته الكثيرة الرصينة فى جغرافية الجزيرة وتاريخها ، وكتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام الحفيل » لجواد على ، وتلك كلها وأمثالها أصول لا نزال نرجع إليها ونستنير بما فيها على طول هذا البحث .

وقد احتفظ لنا القدماء بأمثلة قيمة من لهجات القبائل التى صبت فى النهاية فى نهر العربية الفصحى فلدينا نماذج من لهجات عرب نجد وتميم وأسد وطىء وعبد القيس وقبائل الحجاز مثل جهينة وبلى وبهراء ، وهذه الثلاثة فروع من قضاعة بالإضافة إلى ألفاظ من لهجات الأزد وهذيل . وهذه البقايا تتجمع فى مجموعة لهجات قبائل الشرق من أمثال عبد القيس وبكر وتغلب ، وقبائل الوسط مثل تميم ومجموعة قبائل غرب الجزيرة . فأما لهجات الشرق فصبَّتْ فى لهجة نجد ، ولهجات الغرب صبت فى لهجة كنانة ثم قريش .

ويذهب علماء اللغة إلى أن لهجات الغرب والوسط تقاربت حتى صارت فى أصفى صورها عند قبائل أعاريب نجد ، وقد كان علماء العربية يلتمسون النطق الصحيح للألفاظ عند النجديين ، وليس المراد بذلك بالضرورة كبار القبائل ، بل إن اللهجة العربية التى يفهمها أكبر عدد من العرب وُجِدت عند بطون من غطفان وهوازن وتميم ، وجدير بالذكر أن السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ اختارت أن تبعث بولدها الرضيع إلى منازل بنى سعد بن بكر وهم من هوازن حتى تتعود أذنه النطق السليم .

ومن بطون القبائل النجدية تلك كانت غالبية الوافدين على أسواق الحجاز وأعدادهم الكثيرة هى التى جعلت اللهجة النجدية أشيع اللهجات على الألسن فى سوق عكاظ وإذا كانت نصوص القصائد والمعلقات الجاهلية التى وصلت إلينا أصيلة لم يدخلها تحريف كثير ، فإن اللغة الفصيحة التى يفهمها كل العرب لابد أن تكون قد تطورت هناك من أصول نجدية ومؤثرات حجازية ، وقد اشتهرت قبيلة هذيل - وهى من قبائل شمال الحجاز وهم مُضَريون من بنى مدركة بن الياس - بسلاسة اللغة وحسن النطق وشاعرية الأسلوب ، وديوان الهذليين حاضر بين أيدينا شاهد على ذلك . وأبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو كان من بنى عبد القيس اختار رجلاً عبقسياً من بنى عبد القيس وقال : إن لهجته أصفى ما أعجبه من ثلاثين رجلاً .

وتلك اللهجة النجدية من العربية أصبحت شيئاً فشيئاً لغة عامة يفهمها الناس من كل القبائل أو ما يسمى باسم الكوينى Koiné وهذا المصطلح يطلق على كل لهجة أو لغة تستعمل بين الناس من أصول شتى فى منطقة معينة ، وهذه اللهجة أصبحت شيئاً فشيئاً تسمى قرشية ، لأن قريشاً كانوا أصحاب السوق ، وهم الذين كانوا ينظمونه ويتفاهمون مع أهله .

وهذه اللهجة النجدية الحجازية أصبحت بفضل الشعراء لساناً مفهوماً من العرب جميعاً ، فقد يكون الشاعر تميمياً أو أسدياً أو هذلياً ، فإذا نظم ففى تلك اللغة العامة التى أصبحت لغة تفاهم بين العرب جميعاً واستحقت أن يصفها القرآن الكريم بأنها

لسان عربى مبين نزل به كلام الله حتى يكون حجة على العرب جميعاً ، والقرآن رفع شأن هذه اللهجة وجعلها هى العربية الصافية ولا يعرف العرب أصفى منها .

وإذن فالقرشيون : أولئك التجار الأذكياء العمليون عرفوا كيف ينتزعون من أعاريب نجد شرف وضع اسمهم على هذه اللهجة التى نشأت فى بلاد غيرهم فنسبت إليهم العربية الفصحى ، ولم يقل القرآن إنها لسان قريش ، بل قال إنها لسان عربى مبين ولكن القرشيين بسيطرتهم السياسية على أمة الإسلام نسبوها إلى أنفسهم ، وظهر الكثيرون من المؤلفين ممن يؤيدون هذا القول . ومن المعروف أن كل قبيلة من قبائل العرب تدَّعى جانباً من الفخر فى بناء لغة القرآن ، وربما كانت قريش أقل من غيرها نصيباً فى صنع هذه اللغة ، ولكن هذا هو التاريخ وتصاريفه ، بل إن الكُتَّاب الموالين لقريش أشركوا حلفاء قريش من خزاعة فى هذا الشرف ، فزعم أبو عمرو بن العلاء أن القرآن نزل بلغة الكعبين : كعب بن لؤى بن غالب بن قريش ، وكعب بن عمرو بن عامر من خزاعة .

ولكن قريشاً فازت فى النهاية بكل الثمرات ، فإن نصيبها فى تطوير اللغة العربية لا يرجع إلى امتيازها على غيرها من القبائل فى اللغة والشعر ، ولكنه يرجع إلى التجارة التى جذبت العرب جميعاً إلى أسواق الحجاز وإلى الدين الذى جعل العرب جميعاً يتصورون أن القرشيين كهنة العرب وسدنة أوثانها وأهل الإشراف على كل ما يتصل بأديانهم ، وعندما نزل القرآن أنكر ما فيه معظم القرشيين ، وكان الأوس والخزرج وخزاعة وبطون كثيرة من قضاعة أكثر تقبلاً للإسلام من قريش .

ومع ذلك فعندما تم نصر الإسلام وتقبلت قريش المكية القرآن زعمت قريش أن القرآن نزل بلغتها أو بلهجتها ، وهذا غير صحيح فى جملته إذ الحقيقة أنه نزل بلسان عربى مبين يفهمه كل العرب ، ورسول الله ﷺ عندما كان يكتب كتبه لشيوخ القبائل وسادة الناس من العرب يدعوهم لدخول الإسلام أو يُقرهم على ما طلبوا من الأمان لدخول أمة الإسلام كان يكتب لهم مستعملاً المصطلح الذى يفهمونه فى لهجتهم لأن المهم هو الوضوح ، والوضوح هو البيان والبيان هو البلاغة ، ولهذا فإن رسول الله ﷺ فى حديثه وكتبه يبلغ أعلى مستوى من البلاغة .

وقد جرى الباحثون على أن يعتبروا الشعر الجاهلى هو أكبر شاهد على لغة العرب قبل الإسلام وفى العصر النبوى ، ولكن تبين لنا الآن أن الشاهد الأكبر هى كتب الرسول ﷺ وهى كثيرة ومتنوعة ودراستها تعطينا فكرة أصدق عن تلك اللغة لأنها كُتِبت بلغة تعامل ، وفيها من مصطلح الحياة والمال والتعاون أكثر مما نجد فى الشعر الجاهلى الذى يشوبه الانتحال والوضع . وقد درسنا لغة كتب الرسول فى بحث آخر واستخرجنا منها الشواهد والبينات التى تؤيد ذلك . وقد درس معظمها قبلنا محمد حميد الله فى كتابه عن وثائق العصر النبوى والعصر الراشدى ، ولكننا الآن أضفنا كتباً أخرى كثيرة وواصلنا ما قام به من جهد مشكور .

ومهما يكن من الأمر فإن قريشاً ذهبت بالمجد كله لأن الاتجاه العام بعد الإسلام كان يتجه إلى تعظيم قريش من باب المحبة لرسول الله والبر بأهله ، فقال الناس : إن قريشاً أبلغ العرب وخلطوا بذلك بين محمد ﷺ وقبيله ، فإنه كان فعلاً أبلغ العرب ، ولكن قريشاً لم تكن أبلغها ولا أشعرها ولا أعلمها ، فلم يكن لقريش شاعر ذو قدر يُقارن بشعراء غيرها من القبائل حتى نجم فيها عمر بن أبى ربيعة وهو شاعر كبير ولكنه فى النهاية لا يعد فى الفحول . وقد أجملنا فى هذه السطور آراء عشرات الكُتَّاب والباحثين الذين بذلوا جهوداً ضخمة فى دراسة أصول اللغة العربية ، وقد أوردنا الكثير منها فى موارد هذا الكتاب .

## قُريش وَالكِتابة العَربيّة :

أحصى الدكتور ناصر الأسد فى كتاب « مصادر الشعر الجاهلى » النصوص العربية التى وُجِدت فى كتابات على الأحجار وصورها . فالنصوص الثلاثة الأولى وجدت فى سيناء وهى مؤرخة بين سنتى ٢١٠و٢٥٣ للميلاد ، والنص الرابع وُجِد فى الحِجْر وهى مدائن صالح وتاريخه ٢٦٧م . وذكر كذلك نقشاً خامساً فى حوران غير مؤرخ ولكن المستشرقيْنِ إينو ليتمان والكونت دى فوج يرجحان أن تاريخه يرجع إلى ٢٧٠م. هذه كلها نصوص ترجع إلى القرن الثالث الميلادى ، وهى نصوص عسيرة القراءة ولكن أشكالها تقترب من هيئة الخط العربى وكلها دون نقط أو إعجام .

أما نقوش القرن الرابع الميلادى فأولها نقش وُجِد على قبر امرىء القيس بن عمرو

الذى يوصف بأنه ملك العرب فى النمارة فى إقليم حوران بجنوب فلسطين وهو مؤرخ سنة ٣٢٨ م . وهيئة الكتابة فى هذا النص قريبة من هيئات الحروف والكلمات فى الكتابات الإسلامية الأولى . وهذا النص يمثل مرحلة واضحة من مراحل تطور نشوء الخط العربى لأن الكلمات عربية وأشكال الحروف عربية تقريباً .

ومن نصوص القرن السادس الميلادى أورد د . ناصر الأسد نص خربة زبد بين قنسرين ( حلب ) ونهر الفرات وتاريخه ٥١٠م ، وعليه ثلاث كتابات : يونانية وسريانية وعربية ، والعربية قريبة من رسم الخط العربى الكوفى .

والنص الأخير الذى يورد تاريخه ٥٦٨م . وقد وُجِد فى اللجأ من حوران فى المنطقة الشمالية من جبل الدروز ، وهذا النص يضم كتابة عربية واضحة .

وقد ذكر البكرى نصاً عربياً آخر مؤرخاً سنة ٥٦٠ للميلاد وقد وُجِد فى كنيسة هند فى الحيرة . وتذهب المستشرقة نبية عبود الأمريكية[١] إلى أن الكتابة العربية الأولى اخترعها الرهبان النصارى الذين كانوا يعملون على نشر المسيحية فى الحيرة والشام بين العرب كما فعل غيرهم الذين اخترعوا كتابات أخرى ليكتبوا بها ما يترجمونه من نصوص الكتاب المقدس إلى لغة القوم الذين يعيشون بينهم ، وهى تذهب إلى أن أول مكان كُتِبت فيه تلك النصوص العربية كان فى الحيرة أو الأنبار ، وقد عثر الباحثون على قطع من مزامير داود مترجمة إلى العربية ولكنها مكتوبة بحروف يونانية ، ومن هذا النوع نصان آخران عثر عليهما وفَكّ رموزهما المستشرق Baumstarck وكل هذه النصوص عربية قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى أو ما يسميه المستشرقون بالعربية القديمة Classical Arabic وهى نفس اللغة التى تجدها فى نصوص أوراق البردى الأولى . انظر :

Graf, Sprachgebrauch der älteren Christlischen Arabische Literatur,1905 .

ويذهب يوليوس فلهاوزن فى كتابه القيم عن « الحج قبل الإسلام وعلاقته بالحج

(١) Nabia Abbot , Rise of North Arabian Schrift , 1939.

الإسلامى » J. Welhausen, Reste Arabische Heidenlums,2 ed .1927 إلى أن العربية القديمة ظهرت أول الأمر بعد تطور طويل فى الحيرة ويؤيد هذا القول ما يذكره أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى من أن أول شعر عربى فصيح ظهر وكتب كان فى الحيرة وأول من قال هذا الشعر وكتبه زيد بن حماد العبادى وهو والد الشاعر العِبادى المشهور عدى بن زيد . ويقول الأصفهانى : إن شعر عدى بن زيد لا يعد فى الفصيح تماماً ، ومعنى هذا أن العربية الفصيحة القديمة كانت لا تزال فى دور التطور ، ويذهب المرزبانى فى شرح المفضليات المعروف باسم الموشح ( القاهرة ١٣٤٣ص٧٣) إلى أن عدى بن زيد كان يختار ألفاظه من بين لهجات قبائل شتى ، وأنه كان فى ذلك شبيهاً بالقرشيين الذين كانوا يستعملون فى لهجتهم ألفاظاً وعبارات من لهجات القبائل ، وأن قريشاً كانت تفعل هذا ليستطيع رجالها التفاهم مع رجال القبائل الوافدين على مكة ، وبهذا تكون قريش قد أسهمت بنصيب كبير فى بناء العربية القديمة انظر : K.Vollers, Volksprache und Schriftsprache in alten Arabien , 1906.

ومن الواضح أن معظم النصوص الشعرية التى وصلت إلينا قد أُدخِل عليها تعديل بعد الإسلام لتكون قريبة من الفصحى التى ثبَّتَ القرآن الكريم صورتها ومستواها . وهنا تتجلى لنا أهمية الرواة ودورهم فى تطوير اللغة العربية ، فإن الراوى كان رجلاً من قبيلة الشاعر يفهم شعره لأنه يعرف لهجته ، وهو عندما يروى شعر صاحبه يجتهد فى تقريبه من اللغة المشتركة التى قلنا إنها تسمى الكوينى Koiné العربية. وهذا واضح فيما نعرف عن حماد عجرد الراوية وأبى الأسود الدؤلى فقد كانا راويتين للأشعار من شتى القبائل لإلمامهما باللهجات ، وتلك التعديلات التى أدخلها الرواة على شعر الشعراء ليكون مفهوماً لأكبر عدد من العرب هو الذى فتح باب الوضع والإضافة ، وما دام الراوى يعدل ويغير ويبدل فهو يضيف أيضاً ويضع من عنده .

ولكن هذا الوضع لم يصل قط إلى الدرجة التى ذهب إليها طه حسين فى الطبعة الأولى من الشعر الجاهلى حينما قال إن معظم الشعر الجاهلى موضوع ، وهى نظرية

قال بها من المستشرقين مارجوليوث ، وقد عدل طه حسين نظريته وآراءه فيما بعد ، ولكن الذى نخرج به هو أن ما وصل إلينا من شواهد الشعر الجاهلى وبعض العبارات التى نجدها فى تفاصيل حرب البسوس مثلاً يحمل الطابع اللغوى القرشى أو المكى أو الحجازى الذى أصبح الميزة الكبرى للعربية القديمة أو الفصحى .

وفى اللغة المكتوبة قام الكتبة أو الكُتَّاب بدور الرواة ، فإن الكتابة العربية التى ولدت فى الحيرة دخلت الجزيرة على أيدى دعاة المسيحية ، وكانت تلك الديانة منتشرة بين عباد الحيرة واللخميين والقضاعيين والغساسنة وعرب طىء ومعظم النصوص المكتوبة التى ذكرناها وُجِدت فى بلاد انتشرت فيها المسيحية أى فى بلاد من تسميهم النصوص بنصارى العرب أو عرب الروم ، وعدى بن زيد وأبوه زيد بن حماد وابنه زيد بن عدى كانوا نصارى ، وكانت المسيحية تزحف ببطء فى شمال شبه الجزيرة ، وكانت المسيحية منتشرة بين كثير من بطون قضاعة وخاصة كلب بن وبرة وبهراء وبلى وسليح ، وكذلك انتشرت المسيحية بين الجذاميين وبعض الجهنيين وهذيل فى شمال الحجاز ، وفى منازل هذه القبائل كتب رجال الدين العربية بالخط العربى البدائى الذى أشرنا إليه ، وقد ذكرنا أن بعض نصوصه وردت فى الحِجْر من مدائن صالح ، وكانت تقع فى بلاد جهينة أى : أنها أوغلت فى الحجاز حتى قرب المدينة .

ومن تلك النواحى أخذ القرشيون الكتابة العربية وكانوا فى أشد الحاجة إليها لشئون تجارتهم ، وقد اهتمت بعض بطون قريش بالكتابة حتى سُمِّى بيت من بيوت مُرَة باسم القلمس ومَعْناه القلم كما ذكرنا . ومن بين الكُتَّاب ظهر النسأة وهم الحاسبون الذين يحسبون الشهور والأيام والمواقيت ويكتبون ذلك كله ، وقد أساء النسأة استخدام الكتابة والحساب فزوَّروا ودلسوا دون أن يخشوا بأساً ، فقد كانوا يكتبون لقوم أميين لا يقرأون ولا يكتبون . ولكن الكتابة انتشرت فى قريش وخاصة بين البطون التى اشتهرت بالمساهمة فى الأعمال التجارية بنصيب أكبر من غيرها مثل بنى هاشم وبنى عبد شمس وبنى مخزوم وبنى سهم وجمح من بنى هصيص . وقد اشتهر بيت أسد بن عبد العزى بكثرة من عرف القراءة والكتابة من أبنائه .

وليست لدينا فكرة واضحة عن شكل الكتابة العربية قبيل الإسلام وإن كان من الثابت أن قريشاً كانت أكثر قبائل العرب كُتَّاباً وقراءً وستلحق بمكة المدينةُ فى هذا

المجال ، ولكن ذلك سيكون بعد الإسلام وبفضله ولكن إذا كنا سنقبل من حيث الشكل - بعض صور كتب الرسول ﷺ إلى الملوك والرؤساء العرب فإن هذه الكتب يمكن أن تعتبر نماذج للخط العربى كما كان القرشيون يكتبونه وإن كنا نلاحظ فروقاً جسيمة بين خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوى وكتابه إلى المقوقس فالثانى أقرب إلى الرسم الجارى للكتابة الذى نجده فى أقدم المخطوطات العربية ، أما الأول فهو أقرب إلى نقش القاهرة الذى أورد د . ناصر الأسد رسمه فى ص ٣١ من كتابه الآنف الذكر ، وهذا النص الأخير يرجع إلى سنة ٣١ هـ فى عهد الخليفة عثمان بن عفان .

ونضيف إلى ذلك عدداً من النصوص نشرها الأستاذ محمد حميد الله صاحب الأبحاث والدراسات القيمة عن العصر النبوى وناشر مجموعة وثائق العصر النبوى والعصر الأموى . وقد وجد تلك النصوص على قمة الطرف الجنوبى لجبل سلع فى المدينة المنورة خارج سورها الشمالى ، ورجح أنها ترجع إلى العام الخامس الهجرى أيام معركة الخندق وخط هذه النصوص يشبه خط كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوى[1] .

ونقف عند هذا الحد من تتبعنا لتاريخ اللغة العربية والخط العربى الذى كُتِبت به ، وحَسْبنا النتائج التى وصلنا إليها فيما يتعلق بقبيلة قريش ودورها فى تاريخ الجاهلية .

وخلاصة كلامنا فيما يتعلق بدور قريش فى تطوير العربية وكتابتها أن هذه القبيلة التى تعتبر من أصغر القبائل العربية حجماً استطاعت بفضل دورها الكبير فى التجارة وديانات الجاهليين أن تكون صاحبة دور حاسم فى تطور اللغة والخط ، حقاً إنها لم تخترع هذه ولا ذاك ولكن مقدرتها التجارية وسيطرة رجالها على طرق التجارة والأسواق مكَّنتها من جمع ثروات طائلة وتحويل مدينتهم الصغيرة فى ذلك الحين إلى واحدة من أكبر أسواق الدنيا . ففى مكة كانت توجد فى العصر الجاهلى - وخصوصاً

---

(١) انظر د . ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلى القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٢ . وانظر :
M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Madinah of the Early Years of the Hijra, in Islamic Culture Quarterly, vol XIII, n . 4, October , 1939, p.423.

فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى - بضائع لا توجد فى غيرها من كبريات المدن فى الدنيا .

وقد كانت أرباح هذه التجارة عظيمة وبفضل ثروات المكيين وما تيسر لهم من سبل الاتصال بالناس خارج الجزيرة وفى شتى نواحيها اتسعت معارف القرشيين وزاد هذا العلم المتجمع لهم عن طريق قنوات عملية قائمة من الاحتكاك المباشر بالناس واقتباس العلم بالدنيا وأهلها منهم ، هذا العلم زاد ذكاء القرشيين حدة ، وعندما تطلع شمس الإسلام ويسطع نورها سنجد قريشاً فى مستوى ثقافى وفكرى وحضارى أعلى بكثير من قبائل أكبر حجماً وأوسع منازل وأقرب إلى مواطن الثقافة فى العالم القديم .

ومما تجدر ملاحظته أن أمة الإسلام عندما قامت فى المدينة وجدت الكُتَّاب ومعظمهم من قريش بل كان القرشيون المهاجرون هم الذين وسعوا نطاق الكتابة والقراءة بين اليثربيين ، فعلى أيدى القرشيين تعلم كتاب يثرب من أمثال زيد بن ثابت وأُبى بن كعب وأنس بن مالك الكتابة والقراءة وأصبحوا من نوابغ كتاب الرسول ﷺ ، وعلى يد القرشيين سيتعلم مهاجرة المسلمين إلى المدينة من أمثال أبى ذر الغفارى وأبى هريرة الدوسى ، وبعد معركة بدر نجد أن رسول الله ﷺ يكلف أسرى بدر غير القادرين على أداء الدية بأن يقوم كل منهم بتعليم عشرة من غلمان المدينة القراءة والكتابة فى مقابل فديته .

بل إن الرسول ﷺ وجد فى مكة ناساً يسفرون له عند الروم والفرس وقبط مصر والأحباش . والقول بأن رسل النبى أصبح كل منهم وهو يعرف لغة القوم الذين ندبهم الرسول ليحملوا رسالته إليهم قول بعيد عن التصديق ، وأقرب إلى المنطق منه أن نقول إن أولئك النفر كانوا يعرفون لغات الأقوام ولهذا اختارهم الرسول ﷺ لحمل رسائله .

وسنرى عند دراستنا لموقف قريش من الإسلام نواحى أخرى كثيرة تكشف عن جوانب من قوة قريش أو العوامل التى وضعتها فى هذا الموضع من الصدارة ، ومع أن

جمهرة القرشيين لم تحسن استقبال الإسلام ولا هى أقبلت عليه إلا أن قريشاً كانت - من كل ناحية - أكثر قبائل العرب استعداداً لتلقى الرسالة ، وكان فيها - على الأقل - جماعة أثبتت أنها أهل لحمل الرسالة . حقاً إنهم كانوا أقلية ضئيلة جداً ، ولكن مستواهم العقلى والخلقى والإنسانى كان عالياً جداً . وصدق الله سبحانه وتعالى فى كلامه عن المكيين وعنادهم فقد كان بعضهم يرى أنه حقيق بأن تنزل عليه آيات كتلك التى كانت تتنزل على رسول الله ﷺ ، وهذا غرور من أولئك المكيين ولكنه كذلك إحساس بالامتياز ، واقرأ قوله سبحانه فى سورة الأنعام :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) ﴾ [ الأنعام ] .

والمراد من الجملة الأخيرة من الآية ١٢٤ هو أن أولئك الذين يتعاظمون ويرون أنهم أهل لأن تنزل عليهم الآيات سيعرفون أنهم أصغر من أن يحملوا الرسالة ، والله تعالى أعلم بحالهم وما كانت قلوبهم تنطوى عليه من الشر ، وسيعذبهم الله بذلك كله.

## مُورفولوجيّة قبيلة قريش قبل البعثة النّبَويّة :

بعد أن ألمنا بتاريخ قريش قبل الإسلام نقف لحظات فى نهاية هذا الباب لنلقى نظرة خاصة على دواخل قريش ، على تركيبها الداخلى والطريقة التى كانت تعمل بها وتحافظ على قوتها ، أى : أننا سنتحدث فى هذه الفقرة عن ديناميكية هذه القبيلة وكيف كان نظامها الذى ذكرناه يعمل بنجاح إلى حد كبير . بل سنرى أن تركيب هذه القبيلة وطريقة العمل والحركة بداخلها سيهبها قوة وصلابة تُمكِّنها من الثبات لصدمة الإسلام خلال الفترة المكية من حياة رسول الله ﷺ وستمكن لها من المحافظة على كيانها كتلة واحدة أثناء السنوات الثمان الأولى من التاريخ الهجرى ، فقد صمدت كتلتها بقوة تستلفت النظر وتمسكت بموروثها ، وعندما دخلت مكة فى نطاق أمة المدينة دخل معظم القرشيين الإسلام بنظام يستوقف النظر كما سنرى .

وقد أكثر العرب من الكتابة فى الأنساب ، وما من عالم جليل من علماء العرب إلاّ وله فى الأنساب كلام كثير أو قليل ، ولكن كلامهم الكثير هذا يعرفنا بتفرع قبائل العرب بعضها عن بعض ، ثم أقسام القبائل ثم أفراد الأقسام ثم أنساب الأفراد وهو التعريف بآبائهم وإخوتهم وأمهاتهم أحياناً .

والمصعب الزبيرى فى نسب قريش فى كلامه عن أنساب قريش يتتبع فى أحيان كثيرة أنساب النساء فيقول إن فلانة أمها فلانة وأم فلانة فلانة .

ولكن كل اهتمام مؤرخينا موجه نحو الشكل الخارجى للقبيلة وتقسيماتها السطحية ، ونادراً ما نجد عندهم لمحات تفيدنا فى معرفة التركيب الداخلى للقبيلة : ما هى أساساً ؟ وكيف تتكون ؟ ومم تتكون ؟ وكيف تعيش القبيلة وتعمل بصفتها كياناً اجتماعياً وسياسياً مستقلاً بذاته إلى حد ما ؟ سنحاول هنا أن ندرس باختصار تحليل القبيلة وتشريحها أو أناتوميتها Anatomy of the tribe ووصف تركيبها الداخلى وأجهزتها التى تمسك بعضها ببعض أو مورفولوجيتها Tribe Morphology ونرى كيف تعمل الأعضاء الداخلية للقبيلة أو فيزيولوجيتها Tribe phisiology متخذين قريشاً مثالاً ، لأنها موضوع دراستنا فى هذا الكتاب ، ولأنها القبيلة العربية التى نعرف عنها أكثر مما نعرف عن غيرها .

وكتابات العرب هنا وصفية خارجية ومعظمها يتعلق بالأنساب أى تسلسل أفراد القبيلة ، بعضهم من بعض مع التركيز المطلق تقريباً على العَصَبات أى أنساب الذكور ، ومعظم ما لدينا من المعلومات هنا يرجع إلى أصول قليلة جداً ، وإليك فيما يتصل بتلك الأصول كلام أبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد الله النمرى الأندلسى القرطبى (المتوفى سنة ٤٦٣هـ عن خمس وتسعين سنة ) فى كتاب « الإنباه عن قبائل الرواة » فمن ذلك كتاب أبى بكر محمد بن إسحاق ، وكتاب أبى المنذر هشام بن محمد ابن الكلبى ، وكتاب أبى عبيدة معمر بن المثنى ، وكتاب محمد بن عبدة بن سليمان ، وكتاب محمد بن حبيب ، وكتاب أبى عبد الله أحمد بن محمد بن عبيد العدوى فى نسب قريش ، وكتاب الزبير بن بكار فى نسب قريش ، وكتاب عمه مصعب بن عبد الله الزبيرى فى ذلك ، وكتاب على بن كيسان الكوفى فى أنساب العرب قاطبة ، وكتاب

على بن عبد العزيز الجرجانى ، وكتاب عبد الملك بن حبيب الأندلسى ، إلى فِقَرٍ قيذتُّها من الحديث والآثار ونوادر اقتطفتها من كتب أهل الأخبار[1]» وهذه - بالإضافة إلى كتاب جمهرة أنساب العرب - هى أهم الأصول التى نعتمد عليها فى الأنساب .

أما تحليل تركيب القبيلة وتقسيمها فمن أحسن ما يصور كلام هؤلاء النسابة فيه فهو قول ابن عبد البر النمرى :

« وقال أهل النسب :

الشعوب الجماهير والجراثيم التى تفرقت منها العرب

ثم تفرقت القبائل من الشعوب

ثم تفرقت العمائر من القبائل

ثم تفرقت البطون من العمائر

ثم تفرقت الأفخاذ من البطون

ثم تفرقت الفصائل من الأفخاذ

وليس دون الفصائل شىء : فصيلة الرجل رهطه الأدنى وبنو أبيه » ( الإنباه ص ٥٦-٥٧) .

ويكمل هذه العبارة مثلها للزمخشرى تقول : « والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التى عليها العرب وهى الشعب والقبيلة والعمارة والبطن ، فالشعب يجمع القبيلة ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة ، وسميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها» [2].

وهذا كله كلام سطحى وصفى لغوى ، فكل الذى فيه هو إيجاد اسم لكل فرع من الفروع التى تتشعب إليها الجماعات القبلية ومع ذلك فالكلام ليس دقيقاً ولا كاملاً ، فماذا - مثلاً فوق الشعب ؟ أو ماذا نقول فى عدنان وقحطان ؟ والمعروف أن عدنان

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر ، الإنباه على قبائل الرواة . طبعة دار الشعب بالقاهرة ص ٥٧ .
(٢) هامش الإنباه ص ٥٦ .

وقحطان جذمان ، فالجذم إذن فوق الشعب ، ثم إن أحداً لم يقل إن قريشاً عمارة لأنها قبيلة . ثم ماذا تحت الفصيلة ؟ ألا يوجد هناك البيت أو « أهل بيت » ، وذلك ما نسميه العائلة أو الأسرة .

ثم إن ابن حزم يستعمل مصطلحى البيت والعدد ويقول : « نعنى بالبيت حيثما ذكرناه الشرف وبالعدد الكثرة » وإذن ففى كل قبيلة بيت أى أسرة أو فرع فيه الشرف أى الرياسة وفرع آخر - أو فروع - تتميز بالكثرة ، فقريش مثلاً بيتها فى هاشم وعددها فى عبد شمس .

وكما هى العادة نجد كُتَّابنا القدامى ونَسَّابتهم يقفون دائماً عند السطوح ولا يدخلون فى الأعماق إلا نادراً ، وكتاباتهم فى الغالب أفقية ونادراً ما تكون رأسية . والبلاذرى أراد أن يؤرخ لدولة الإسلام أفقياً فكتب « فتوح البلدان » درس فيه اتساع الدولة أفقياً ، ثم خطر له أن يؤرخ لها رأسياً فكتب « أنساب الأشراف » .

وفى قواميس اللغة أن القبائل لا توجد إلا فى العرب ، جاء فى لسان العرب والقبيلة من الناس بنو أب واحد . التهذيب : أما القبيلة فمن قبائل العرب وسائرهم من الناس . ابن الكلبى : الشعب أكبر من القبيلة ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ . قال الزجاج : القبيلة من ولد إسماعيل عليه السلام ، كالسِّبْط من ولد إسحاق عليه السلام ، سموا بذلك ليفرق بينهما ومعنى القبيلة من ولد إسماعيل معنى الجماعة، يقال لكل جماعة من واحد قبيلة ، ويقال لكل جمع من شىء واحد قبيل .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ الأعراف ] أى : هو ومن كان من نسله ، واشتق الزجاج « معنى لفظ قبيلة » من قبائل الشجرة ، وهى أغصانها ، وقال أبو العباس المبرد : أُخذت قبائل العرب من قبائل الرأس لاجتماعها وجماعتها : الشعب والقبائل دونها . ويقال : رأيت قبائل من الطير أى أصنافاً ، وكل صنف منها قبيلة ، فالغربان قبيلة ، والحمام قبيلة ، قال الراعى :

رأيتُ رُدافَى فَـوْقَهَـا مِـنْ قَبِيـلَةٍ  مِنَ الطَّيرِ يدْعُوهَا أَحمَ شَحوجُ

يعنى : الغربان فوق الناقة . وكل جيل من الجن والناس قبيل .

ويقول قبل ذلك : « القبيلة واحدة قبائل الرأس ، وهى القطع المشعوب بعضها إلى بعض تصل بينها الشئون ، وبه سميت قبائل العرب ، الواحدة قبيلة ، وكذلك قبائل القدح والجفنة إذا كانت على قطعتين أو ثلاث قطع وقبائل الرحل أحناؤه المشعوب بعضها إلى بعض وقبائل الشجرة أغصانها وكل قطعة من الجلد قبيلة ، والقبيلة صخرة تكون على رأس البئر » ( اللسان ٢/ ١٢ ) .

وهذا كل ما نجده فى معاجم العربية عن القبيلة ، ومهما تبحث فى أصولنا العربية فما أنت بواجد تعريفاً أوسع من هذا للقبيلة ، وأنت لا تعرف علام تطلق القبيلة: هل على الناس الذين تربطهم رابطة الدم ، أم على جماعة من الناس ينضم بعضهم إلى بعض ويتكاملون فيما بينهم كما تتكامل أعضاء الرأس هى وشئونها أو الجماعة من الناس الذين يتفرع أفرادها بعضهم عن بعض كما تتفرع أغصان الشجرة وهل كل صنف من الطير والحيوان قبيلة ، وما هو الرابط بينها .

وهذا الإجمال فى ذكر القبيلة وتعريفها يدل على أن القدماء لم يجدوا ما يدعوهم إلى الوقوف فى نظام جنسهم وأصوله ونظامه ، وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام هذا الطراز من الغموض الذى يكتنف التاريخ البعيد للعرب ولغتهم وكتابتهم وكان علينا أن نتقبل كل شىء عن الأصول والجذور على أنه بداية كلام لا آخر ما يقال فى الموضوع لأن كل شىء يتصل بأصول العرب يهمنا ، ولا نستطيع الوقوف فيه عند السطوح . وكما فعلنا فى بحثنا عن أصول اللغة والكتابة كان علينا أن نستنتج كل شىء من النصوص استنتاجاً ، وإن كان يستوقف نظرنا ما يقوله الزجاج من أن فروع العرب سميت قبائل فى مقابل الأسباط وهم أبناء إسحاق .

حتى ابن خلدون وهو المَعْنِىُّ بشئون الاجتماع لا يفيدنا فى هذا المجال فهو فى كلامه عن العمران البدوى يضع عنواناً هو : « فى العمران البدوى والأمم الوحشية والقبائل وما يعرض من ذلك من الأحوال وفيه فصول وتمهيدات » ( ص ١١٠ ) وكلامه فى هذا الباب بفصوله الكثيرة قائم على أننا نعرف سلفاً ما هى القبيلة وكيف تتكوَّن والأنساب وتفرعها وبقاءها صريحة سليمة واختلاطها وما إلى ذلك . أما إذا

ذهبت تسأل عما وراء ذلك فأنت لا تجد جواباً : هل تسلسل الناس فى القبيلة يكون بالعصبات فقط أى بالنسل من الذكور أو أن النسل من البنات أيضاً يدخل ضمن ما يُعرف عادة بالرحم ؟ وما الفرق بين الأرحام الناشئة عن خط الذكور والأرحام الناشئة عن الزوجات والبنات والأخوات البنات ؟ وهل مر العرب بدور سيادة الأم فى الجماعة وما يسمى باسم Matriarct ثم غلب الرجال بعد ذلك ودخلت الجماعة فى طور سيادة الرجال المعروف باسم patriarct كما هو الحال مع كل من نعرف من الجماعات القبلية .

والظاهر الذى يمكن التعويل عليه فى هذا المجال هو أن العرب الذين يعرفهم التاريخ يظهرون فجأة فى صورة جماعات قبلية رجالية أو باتريباركية ، وهذا هو المعقول لأن أصول العرب البعيدة تلك لا بد أن تكون قد وُجِدت فى عصور البائدة الذين لا نعرف عنهم شيئاً ، أما العاربة والمستعربة فقد رأينا أنهم دخلوا الجزيرة قبائل باتريباركية ذات ماض بعيد خلفته وراءها فى أوطانها الأولى ، وقد رأينا الزجَّاج يقول إن القبائل مصطلح لا يكون إلا فى العرب وإن هذا المصطلح يقابل الأسباط عند أولاد إسحاق . وفى كلامنا عن دخول المستعربة رأينا اليعقوبى يقول : إن قبائل العرب الذين انحدرت منهم قريش أى الاسماعيلية دخلوا الجزيرة بأسمائهم العبرية أو السريانية ثم عُرِّبت بعد ذلك .

وقد قلَّتْ أهمية كل النظم الاجتماعية العربية التقليدية بمجىء الإسلام وحلول شريعته وأخلاقياته محل النظام الاجتماعى الذى كان سائداً قبل ذلك . وفى أطواء الكتب نعثر على بعض العادات القديمة مثل زواج الولد من امرأة أبيه مما يترتب عليه أن يكون له إخوة وأولاد من نفس المرأة ، ووراثة الأخ لكل ما يتركه أخوه المتوفى دون أولاد أو عن أولاد صغار ، وكأن الأخ كان هو الوريث الشرعى فى تلك الحالة . وقد نص القرآن نصاً صريحاً جداً على ترتيب القرابات وما هو محرم منها وما ليس بمحرم ، ومن الذى يعتبر جزءاً من العائلة يؤذن له الدخول على نسائها دون أن يتحجبن دونه ومن لا يجوز . وكذلك فصَّل القرآن والسنة أمر الميراث ونظامه وحصصه ، وقضى بذلك على كل ما كان قائماً قبلاً .

ومن أكثر من مائة سنة كتب روبرتسون سميث كتابه المشهور عن تطور النظام

الاجتماعى للعرب ، فقال بوجود الطوطمية عند العرب القدماء أى ارتباط الناس بعضهم ببعض برابطة عبادة شىء أو حيوان أو نبات يسمى طوطما . والطوطمية لا تتعارض مع خطوط النسب ، فإن القبيل من القبائل الأفريقية أو الاسترالية والهندية الحمراء أو المغولية كانت تترابط بروابط الدم والنسب ثم يتضخم القبيل بعد ذلك بانضمام جماعات أخرى إليه تعبد نفس معبود القبيل ، ومع الزمن تصير الجماعة الطوطمية قبيلاً واحداً .

ولا بد أن العرب الموغلين فى القِدَم عرفوا الأسرة الماتريباركية التى تتكون حول الأم دون الأب وتكون السيادة فيها للأم ، وهذا ظاهر فى أسماء القبائل المؤنثة الاسم مثل خزاعة وكندة وقمعة وخزيمة ، ومن أمثلة بقايا الطوطمية أسد وثعلب وثعلبة وكلب وما إليها . وقد أنكر الباحثون العرب آراء روبرتسون سميث من زمن بعيد غيرةً على أنفسهم وترفعاً عن أن تكون أصولهم مشابهة لأصول القبائل البدائية ذات المستوى الحضارى الخفيض ، ولكننا لا نرى الآن ما يدعو إلى ذلك ، لأن العرب بَشَرٌ كغيرهم لا بد أنهم ساروا فى تطورهم السحيق فى نفس الخطوط العامة لكل الجماعات البشرية ، وإن كان ذلك أيام البائدة أو حتى قبلها ، وربما تكون مراحل هذا التطور قد تمت قبل دخول موجات الوافدين من طبقات العرب كالعاربة والمستعربة .

وقد تكلم مونتجومرى واط فى أحد ملحقات الجزء الثانى من حياة محمد ﷺ التى كتبها عن بعض ممارسات العرب الجاهليين فى مسائل الزواج والعصبات والأرحام وبقايا ذلك فى الإسلام ، وقد تحامى الكثير من آراء روبرتسون سميث ، وكلامه مفيد ولكنه لا ينفعنا فى مطلبنا هنا ، وقد رأينا أن نركز الكلام هنا على ما يعيننا على معرفة التركيب الداخلى لقريش وكيف كان نظام القرابات والولاء والتبنى والإلحاق يعمل ، وكذلك سنتناول بالكلام علاقات الناس بعضهم ببعض داخل القبيلة وخارجها . ولن نذكر من ذلك إلا ما يفيد بحثنا تاركين بقية ذلك لمن يريد أن يصرف إليه جهده ، ولكننا نشير هنا إلى المراجع التالية التى تنفع القارىء فى هذا المطلب[1] ، وهذا مع

(١) Robert son Smeth , Kion ship and Marraige in pre -islamic Arabia - London 1906 G.M. Stern , Marraige in Early Islam - Leiden 1945.

W. Montgamer Watt, Muhammad at Medina , Oxford 1956.

Exewrous J . Marraige and Family in pre- islamic times pp . 377

العلم بأن مؤلفى تلك الكتب يعتمدون أساساً على مراجع عربية ، ولكن الخطأ يدخل عليهم من ناحية التفسير وسوء القصد وكلاهما متوفر عندهم .

وقبل أن أدخل فى صميم ما يهمنا هنا من كلام ابن خلدون فى الفصل الثامن من الباب الثانى من مقدمته وعنوانه : « فى أن العصبية إما تكون من الالتحام بالنسب أو ما فى معناه » (ص ١١٧ وما بعدها ) قال :

« وذلك أن صلة الرحم ( أمر ) طبيعى فى البشر إلا فى الأقل . ومن صلتها النُّعَرة (= الغيرة ) على ذوى القربة وأهل الأرحام أن يناهم ضيم أو تصيبهم هلكة ، فإن القريب يجد فى نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك ، نزعة طبيعية فى البشر مذ كانوا ، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريباً جداً بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة ، فاستدعت ذلك بمجردها ووضوحها . وإذا بَعُدَ النسب بعض الشىء فربما تُنوسِى بعضها ، ويبقى منها شهرة ، فتحمل على النصرة لذوى نسبه بالأمر المشهور منه فراراً من الغضاضة التى يتوهمها فى نفسه من ظلم من هو منسوب إليه بوجه . ومن هذا الباب الولاء والحلف ، إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه وحلفه ، للألفة التى تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب ، وذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء مثل لحمة النسب أو قريباً منها .

ومن هنا نفهم معنى قوله ﷺ : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » . بمعنى أن النسب إنما فائدته هذا الالتحام الذى يُوجِب صلة الأرحام ، حتى تقع المناصرة والنعرة ، وما فوق ذلك مستغنى عنه إذ النسب أمرٌ وهمى لا حقيقة له . ونفعه إنما فى هذه الوصلة والالتحام فإذا كان ظاهراً واضحاً حمل النفوس على طبيعتها من النعرة كما قلنا وإذا كان إنما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائدته .وصار الشغل به مجاناً ( أى بدون فائدة ) ومن أعمال اللهو المنهى عنه. ومن هذا الاعتبار معنى قولهم : « النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر » بمعنى أن النسب إذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائدة الوهم فيه عن

النفس ، وانتفت النعرة التى تحمل عليها العصبية ، فلا منفعة فيه حينئذ ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

وفى الفصل التالى لهذا وهو التاسع ( ص ١١٨ ) حيث يتكلم على سلامة الأنساب وصحتها وصراحتها عند العرب الساكنين داخل الصحراء فى حياة الشظف والجوع حيث لا يرغب غريب فى اللحاق بهم : « واعتبر ذلك فى مضر من قريش وكنانة وثقيف وبنى أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة ، لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع . وبعدوا من أرياف الشام والعراق ، ومعادن الأُدَم ( مصادر ما يؤتدم به من الطعام ) والحبوب ، كيف كانت أنسابهم صريحة محفوظة ، لم يدخلها اختلاط ولا عُرِف فيها شوب . وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفى معادن الخصب للمراعى والعيش من حمير وكهلان ، مثل لخم وجذام وغسان وطىء وقضاعة وإياد ، فاختلطت أنسابهم ، وتداخلت شعوبهم ، ففى كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما نعرف ، وإنما جاءهم ذلك من قِبَل العجم»[1] .

وهذا الكلام من ابن خلدون مبنى على المنطق والاستنتاج ، فهو لم يعرف من تاريخ قريش القديم ما يؤكد عنده أن تكوينها كله كان من صميم مضر من فرع إلياس ، وهو الفرع الذى سكن الحجاز ، فقد رأينا أن كنانة أم قريش قد مرت فى طريقها إلى الحجاز ببلاد قضاعة واختلطت بها وأخذت منها ، ورأينا كذلك أن مضر كلها بفرعيها قيس عيلان وإلياس كانوا فى الزمن السالف وقبل دخول الجزيرة يعيشون فى صحارى بلاد الشام والعراق فيما يسميه ابن خلدون بالأرياف ولهذا لم يكونوا بدواً خالصين ولو كانوا بدواً خلصاً لما تطلعوا إلى دخول مدينة -هى مكة - والاستقرار فيها وهم لم ينشأوا فى الصحراء من الأصل ولا كانوا فى بداية أمرهم بادية ظاعنة متوحشين فى القفار ، وإنما هم دخلوا الصحراء فأنفوا بأنفسهم من الخضوع للدول الكبيرة التى كانت تحرص على بسط سلطانها عليهم وفرض الإتاوات والمغارم عليهم . وهذا الأصل الحضرى البعيد للعرب الإسماعيلية جميعاً كان له أبعد الأثر فى أسلوب حياتهم ، فأما من أبعد فى القفر منهم وسكن البوادى بعيداً عن مهاد الحضارة

(١) ابن خلدون ، المقدمة . طبعة دار الشعب ص ١١٨ .

فهم أهل البدو حقاً لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبُعْدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار[1] وهؤلاء هم العرب أو الأعاريب .

ولهذا فإن قريشاً وكنانة وكل قضاعة من فرع إلياس بن مضر بدو حضر أو أنصاف حضر Semi-nomads ، فهم بدو بنظامهم الاجتماعى أى بانتظامهم فى صورة قبائل مترابط أفرادها بالأنساب lineages وعلاقات الرحم Consanguinal Kin واعتمادهم على النظام القبلى فى ضمان أمنهم وسلامة أفرادهم ، وهذا الطراز من القبائل يدخل ضمن ما يسمى باسم Clans لا tribes وحتى قبل انفصال قريش من كنانة ودخولها مكة كانت قريش مستقرة فى موضعها إلى حد ما ، ولا بد أنها قضت وقتاً طويلاً فى جوار بنى عذرة من بنى سعد هذيم القضاعيين . ولا بد كذلك أن مقامهم طال قرب مكة وخارجها حتى استقر رأى قصى على اقتحام المدينة على خزاعة وانتزاع السلطان على المدينة منها ، ولهذا فقد كانت قريش وكل كنانة من طراز الكلانات التى يطلق عليها اسم local clans أى : ذات المنازل المحددة الموضع .

ومنذ البداية نلاحظ أن قريشاً لم تكن ذات نظام معين متبع فى الزواج والمصاهرات ، فمن القبائل ما يكون فيه الزواج من داخل القبيلة فقط ، فيكون خط النسب مزدوجاً bilateral lineage ومنها ما يكون الزواج فيه مطلقاً ، أى أن أفرادها يستطيعون الزواج من داخل القبيلة أو خارجها exogamous وهنا يكون النسب فى خط واحد هو خط الذكور unilateral agnate lineage.

وقد تتبعنا بالدراسة خط نسب قريش وانحدارها من كنانة حتى انفصالها عنها وقد رأينا صعوبة الأخذ بما يقوله النسابة من أن كل الأسماء التى ترد فى خط النسب هى لرجال بل معظمها لقبائل أو كلانات ، فهى أسماء جماعات أو جُماعات أنساب ، وقد يكون الاسم الذى لدينا اسم الموضع الذى تم فيه الحلف وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من ذلك ، وقد عثرت عند ابن عبد البر فى الإنباه على مثل آخر فى آخر كلامه عن بجيلة وخثعم ، فبعد أن يورد قول ابن إسحاق والمصعب الزبيرى : وعن جبير بن مطعم أن خثعم وبجيلة ابنا أنمار بن نزار بن معد بن عدنان ، يقول فى نهاية الكلام : «تحالفا لقتل ابن أنمار وجماعة معه على جبل يقال له خثعم فسموا خثعم»[2].

(١) ابن خلدون . المقدمة ص ١١٤ .
(٢) ابن عبد البر : الإنباه على قبائل الرواة ، ص ١٠٥ .

وبهذه المناسبة نسوق إليك مثالاً يدلك على فوضى شجرات الأنساب وقلة الجدية فيها أحياناً ، فمن المعروف أن خثعم تدخل ضمن القبائل المسماة باليمنية ولكن بعض النسابة مثل ابن إسحاق والمصعب الزبيرى أرادا أن يلحقاها بالعدنانية فقالا : « وأكثر أهل النسب يقولون إنهما ابنا أنمار بن نزار بن معد بن عدنان وإنهما لحقا باليمن وانتسبا عن جهل منهما إلى أنمار بن أراش بن عمرو .. بن كهلان بن سبأ » (١).

وعلى هذا الأساس قلنا إنه لا يمكن قبول ما يزعمه النسابة من أن خزيمة كان رجلاً تزوج امرأتين واحدة من قيس عيلان أنجب منها كنانة وأخرى من بنى تميم أنجب منها أسداً وأسدة والهون وأن هؤلاء الأربعة أصبحوا قبائل وخثعم نفسه أصبح قبيلة ( وحده منفصلاً عن أبنائه ! ) والهون وحده أنجب خمس قبائل هى ديش وعضل والقارة وهؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى الحيا والمصطلق من بنى سعد الخزاعيين يتكون منهم حلف الأحابيش الذى ذكرناه .

ولكننا إذا صعب علينا قبول هذا القول من الرواة فإننا على الأقل نستطيع أن نفيد من الزيجات التى يذكرها الرواة فى سياق النسب فنقول : إن حلف خزيمة قبل أن تتفرع عنه على مر سنوات طويلة أربع قبائل هى كنانة وأسد وأسدة والهون صاهروا أبناء عمومتهم قيس عيلان ، وأن بنى كنانة صاهروا قضاعة من ناحية وبنى تميم من قيس عيلان من ناحية أخرى ، ولهم كذلك بنو ساعدة الخزرجيون رهط سعد بن عبادة والخزرج عند النسابة يمنيون .

وفى دور النضر بن كنانة - من أدوار تسلسل فرع قريش من كيانه الأم كنانة ، وهو الدور الذى بدأ اسم قريش يظهر فيه نجد أن لدينا صهراً مع عدوان من قيس عيلان وآخر مع هذيل بن مدركة وهم الهذليون وصهراً مع جرهم ، وكانت جرهم (الثانية ) إذ ذاك فى طريقها إلى التلاشى .

وفى دور فهر يبدأ انقسام خط مالك بن النضر إلى فرعى غالب وفهر ، فغالب هم

---

(١) ابن عبد البر ، الإنباه ، ص ١٠٣ . وسبأ المذكور فى النص هو أخو الأزد . (جمهرة ابن حزم ص ٣٨٧ ) وخثعم هى قبيلة أسماء بنت عميس الصحابية ( ص ٣٩١) ولعل هذا هو الذى حدا بالنسابة إلى نقل قبيلتها إلى عدنان ، وابن حزم نفسه يجعل خثعم مرة فى أنمار من سبأ ( ص ٣٩٠) ومرة فى الأزد ( ص ٣٣٠) .

الذين يستقر فيهم اسم قريش ، أما فروع الحارث ومحارب وجندلة فيستمر فيهم اسم فهر ، وفروعهم هى التى ستعود إلى الحلف مع فرع قريش بعد دخول قصى مكة ، وهؤلاء هم قريش الظواهر .

وفى طور لؤى بن غالب نجد أن الصهر مع قضاعة ، فيذكر النسابة أن لؤياً تزوج امرأة تسمى مارية بنت كعب من بنى القين ، واسمها يدل على أنها كانت نصرانية ، وبنو القيم من فروع قضاعة المتنصرين الذين يدخلون فيمن يُعرفون بنصارى العرب ، وهم غير عرب الروم وكانوا متنصِّرة أيضاً وأكبرهم غسان وهم معدودون فى اليمن .

وفى هذا الطور تنفصل أربعة فروع من لؤى وتخرج من قريش وكنانة جملة ، وهم الحارث بن لؤى ( يدخلون فى همدان اليمنيين ) وسامة بن لؤى وهم بنو ناجية وهؤلاء يستقرون فى عمان - والأرجح أن المراد هنا عَمَّان الشام بالفتح لا عُمَان الجنوب بضم العين - وبنو سعد بن لؤى وهم بُنَانة يدخلون فى بنى شيبان ( بن محارب بن فهر فى الغالب ) وبنو خزيمة بن لؤى ، وهؤلاء أيضاً يدخلون فى بنى شيبان. ويبدو أن بنى شيبان بن محارب بن فهر - وهم من قريش الظواهر - كانوا قريبين جداً من بنى لؤى بن غالب لأن كعب بن لؤى يتزوج منهم ، وكلاب بن مرة الذى يستمر فيه عمود النسب يصهرون فى بنى سرير بن الحارث من كنانة ويصهرون إلى بنى سعد وهم بارق ( لا نعرف من المرادون هنا ) ، ويصهرون كذلك إلى بعض فروع الأزد .

وعندما نصل إلى طور قريش نجد أن المصعب الزبيرى لا يذكر له إلا امرأة واحدة هى حُبىً بنت حليل بن حبشية وهى خزاعية كما نعرف ، وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين قصى وبنى عذرة فإن المراجع لا تذكر له صهراً فيهم .

وابتداءً من عبد مناف بن قصى يتعدد الصهر وتكثر الزوجات ونجد القرشيين يتوسعون فى الصهر ربما لأسباب سياسية فنجد عبد مناف يتزوج امرأة من بنى هلال ابن عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، تسمى عاتكة وأمها تسمى مارية ، فهى نصرانية فى الغالب ، وهذه هى ثانى امرأة بهذا الاسم فى صهر كنانة وقريش ، ومارية

هذه ينتهى نسبها إلى سلول من بنى معاوية بن بكر بن هوازن إخوة بنى سعد بن بكر الذين استرضع الرسول فيهم .

والخلاصة هنا أن كنانة وقريشاً حتى عبد مناف كانوا يتزوجون من خارج قبائلهم فى الغالب ، ليكثر جمعهم وأنصارهم ، وبعد استقرار قريش فى مكة نجد أن الصهر يتوسع ، فهم يتزوجون فى كل القبائل المحيطة بهم وخاصة خزاعة وفروع القضاعيين وبنى هلال بن عامر بن صعصعة ، وهاشم يتزوج امرأة خزرجية هى سلمى من بنى عدى بن النجار . وعند هاشم نجد أول مثال من زيجات القرشيين يمكن أن يوصف بأن العصمة فيه للزوجة Uxorical فسلمى النجارية تشترط أن تظل فى أهلها فى المدينة وهى تحتفظ بابنها منه وهو شيبة الذى سيسمى عبد المطلب حتى يبلغ السنوات العشر فيذهب عمه ويأتى به ، ولكن هذا النوع من الزواج كان نادراً بين القرشيين .

وهذا التعدد فى الصهر والإكثار من الزيجات طلباً للإكثار من الأولاد زاد قريشاً قوة ، فإن الصهر واشجة رحم وهو فى نفس الوقت رابطة سياسية بين الناس فى النظم القبلية . فلا شك أن آل الزوجات كانوا يترددون على مكة لزيارة بناتهم وأبناء البنات ، وبخلاف ذلك نجد أن أخبار زواج القرشيات خارج مكة أو خارج نطاق القبيلة كانت قليلة ، لأن ذلك كان يستدعى انتقال الزوجة إلى منازل قبيلة زوجها ، والقرشيات - بعد أن استقر بهن المقام فى مكة وتعوَّدْنَ الحياة فيها - لم يعد من السهل عليهن أن يرتددن إلى حياة الظعن والبداوة .

ومع أن المجتمع القرشى المكى كان مجتمع رجال فهم سادته وأصحاب الكلمة فيه ، فإن القرشيات كن يتمتعن بمكانة محترمة ، وكثير من الرجال كانوا لا يستنكرون من أن يُنسبوا إلى أمهاتهم ، فأبو جهل كان يسمى أيضاً ابن الحنظلية ، ونوفل بن خويلد وهو المعروف بأسد قريش وأسد المطيبين كان يسمى بابن العدوية ، وعمر بن الخطاب كان لا يأنف من أن يقال له ابن حنتمة . ( والحنظلية أم أبى جهل هى أسماء التميمية وكانت تاجرة عطور معروفة ) ، واشتغال النساء بالتجارة كان أمراً معروفاً فى مكة ، والمثال الأكبر لذلك هى خديجة بنت خويلد أم المؤمنين .

وأم الجلوس بنت مخربة خالة أبى جهل لا بد أنها كانت امرأة ذات مكانة بين كفار

قريش لأنهم أودعوا صحيفة مقاطعة بنى هاشم عندها . وفى الصراع بين الإسلام وكفار قريش ، نجد النساء يقمن بدور كبير على الجانبين ، فبنات عبد المطلب وخاصة صفية وأَرْوَى وعاتكة يَقُمْن بدور ظاهر فى مناصرة الإسلام ونشره وفى ناحية أخرى نجد نساء يَقُدْنَ الحرب ضد الإسلام ، والمثل الكبير لذلك هى هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان ، وهناك كذلك أم مصعب بن عمير وأم عثمان بن طلحة فقد حاولت كل منهما عقاب ابنها على دخول الإسلام . والأمثلة هنا كثيرة جداً .

والذى يعنينا من ذلك كله هو أن المجتمع المكى فى ظل سيادة قريش كان مجتمعاً مفتوحاً مطلقاً من كثير من القيود التى خضعت لها قبائل عربية أخرى معاصرة لها فقيَّدت حريتها وضيقت أفقها ، فتميم مثلاً كانت تعيش فى مساحاتها الشاسعة مقفلة على نفسها لا يصلها بالعالم الخارجى إلا التجارة التى كان يتولى القرشيون الجانب الأكبر منها ، ومعظم تزاوج التميميين كان فيما بين بطونهم بعضهم وبعض لا يكادون يجاوزونها . وبينما كانت مكة بلداً مفتوحاً يفد عليه الناس من كل ناحية للحج أو للتجارة فيجدون هناك نظاماً موضوعاً لاستقبال الغرباء وإيوائهم وتقديم الطعام والماء لهم نجد أن دخول الغرباء بلاد تميم كان قليلاً جداً ، وكذلك رحلاتهم إلى خارج منازلهم ، وعندما يجىء الإسلام ويدخل بلادهم نجد التميميين يعيشون فى شبه عزلة فى منازلهم يحسبون أنهم أذكى الناس وأبلغهم وأشهرهم . وقد دهش وفدهم عندما قدم على رسول الله ﷺ من مستوى التحضر والبلاغة شعراً ونثراً فى المدينة . ومعظم القائمين عليه كانوا قرشيين ، بل إن أهل يثرب أنفسهم كانوا يعيشون فى مدينتهم شبه منعزلين ، حتى دخل القرشيون يثرب مع رسول الله فتحرك كل شىء وتفتحت الأبواب وترقى اليثربيون فى مدارج التحضر بفضل الإسلام .

ومع أن رسول الله ﷺ ساوى بين أصحابه ولم يفضل مهاجرياً على أنصارى إلا أننا نلاحظ أن القيادة الاجتماعية والحضارية كانت فى يد القلة القرشية ، وما ذاك إلا لأن أولئك القرشيين كانوا أحسن نظاماً وأوسع آفاقاً وأعرف بأحوال الدنيا والناس منهم . وبعد وفاة الرسول ﷺ وما حدث فى اجتماع السقيفة نرى بكل وضوح تفوق القرشيين فى التقدير والتدبير والكلام على الأنصار ، وهم الذين فازوا بقيادة الجماعة

بعد الرسول وأحسنوا القيام عليها فى أيام أبى بكر وعمر وجزء من خلافة عثمان على الأقل .

أما الفرق بين المستوى الحضارى بين قريش ومجموعات قبلية مثل غطفان وهوازن وأسد وما إليها فظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، والفرق فى العقلية والنظرة إلى الأمور بين زعماء مكة حتى فى أيام الكفر من أمثال عيينة بن حصن سيد فزارة ورخيلة بن عائذ بن مالك شيخ أشجع من ريث بن غطفان كان عظيماً جداً حتى ليحسب الإنسان أن هذا شعب وذاك شعب آخر ، وأن فرقاً زمنياً شاسعاً يفصل بين الاثنين . وفى أثناء المغازى والسرايا حينما يتنقل المسلمون بين رجال القبائل فى منازل أقوامهم نحس أن القرشيين كانوا بالفعل أعلى حضارياً من مستوى نظرائهم ومعاصريهم درجات ، وكل ذلك من آثار التجارة والاتصال بالعالم ، ووعى القرشيين بأنفسهم وإحساسهم بمكانهم وحسن إدراكهم لمصالحهم وما يريدون ، هذا إلى تميُّز ظاهر فى الذكاء هو نتيجة الاتصال بالدنيا والحركة والتنقل وما يؤدى إليه ذلك من حركة الأفكار .

ويستوقف النظر فى مكة قبل الإسلام استقرار الأمر وانتظام سير الأمور ، فالبلد آمن من خارج ومن داخل وحوادث العدوان على الأنفس والأموال قليلة والسلام مستقر بين الوحدات القبلية أو البيوت رغم المنافسات السياسية التى لا بد منها بين تلك البيوت ، يحس الإنسان دائماً أن هناك نظاماً مستقراً وأن سكان مكة ومن حولها من القبائل يتمتعون بسلام ورخاء نسبيين كأن النظام الإدارى البسيط الذى ذكرناه وهو نظام تقاسم المسئوليات المدنية والجماعة مثل الرفادة والسقاية والندوة واللواء وما إليها كان فى مجموعه نظاماً صالحاً وكافياً إلى حد ما للقيام بشئون مدينة مكة وما حولها .

والسبب فى ذلك فيما نرى هو أن قريشاً فى انتقالها من البداوة وحياة الظعن إلى الاستقرار فى مدينة لم تتحول إلى مجتمع مدنى بل حافظت على نظامها القبلى . والنظام القبلى العربى - رغم بساطة تركيبه - نظام اجتماعى وسياسى متكامل ووافٍ بحاجات الجماعة التى يقوم فيها . إنه نظام بسيط ولكنه ليس بدائياً وحاجات القبيلة

فى ذاتها قليلة والعصبية القبلية تكفى لحماية الإنسان داخل القبيلة ولحماية القبيلة كلها بين القبائل ، لأن كل بيت داخل القبيلة مترابط متماسك وكاف لإيقاف العدوان على أى فرد من أفراده ، فإذا عجز البيت عن تسيير أموره أو تعرض للعدوان من بيت آخر تدخلت القبيلة كلها للحماية وإيقاف العدوان وإقرار السلام .

والقانون البدوى عرفى ولكنه قانون كاف لحماية الناس وأموالهم ، والأفراد والجماعات الصغيرة داخل القبيلة تطيعه وتنفذه بأمانة ، والغش والخداع والخيانة لا تترك دون عقوبة أبداً ، وثروات البيوت قليلة فهى لا تخرج عن أذواد من الماشية وبعض النخيل وشىء قليل من الزراعة السَّريعة فى بعض الأحيان ، ويراد بتلك الزراعة شىء من الشعير والمحاصيل السريعة النمو والحصاد ، والقبيلة كلها مسئولة عن ثروتها الجماعية من ذلك كله ، وكل ملكية معروفة ، وكل حق ظاهر ، والقبيلة كلها تعيش فى حالة تأهب مستمر للدفاع عن النفس أو الرحلة وشيوخ القبيلة مطاعون والخلافات بينهم تُسوَّى دائماً على عجل ولا تترك لتعمق . وأى فرد من أفراد القبيلة يرفض النظام ويتكرر خروجه عليه يقتل أو يخلع ويعلن أمر خلعه للقبائل المجاورة للقبيلة إعفاء لمسئولية القبيلة عنه ، ويصبح دمه مهدوراً إلا إذا لجأ إلى قبيلة أخرى وقبلت جواره . والمحالفات والعهود بين القبائل المتجاورة مرعية بعناية والبدوى العادى متعود على حياة الشظف قانع بما يقدر له من الرزق . ومعظم العمل تقوم به النساء ، وإذا كان الرجال أو الصبيان هم رعاة الإبل والماشية خارج مضارب القبيلة فإن كل شىء عدا ذلك تقوم به النساء . والنساء يرثن المهارات الفنية البسيطة من غزل ونسج وحلب الماشية وصنع الخبز أو اختزان المئونة من التمر والزبيب وهُنَّ محفوظات محميات من العدوان .

وقريش عندما استقرت فى مكة لم تتخل عن هذا النظام فاستمر يعمل بنظام فلكل عشيرة من عشائر القبائل شعبها أو حَـيُّها ، وشعاب العشائر تجمعها شعاب الفصائل وهكذا . والدُّور كلها من اللبن فلا نسمع عن بنيان بالحجر إلا فيما يتصل بالكعبة ، وإلى جانب البيوت القرشية عاشت فى مكة بيوت من الأغراب عنها ولكنها حليفة ، وبديل بن ورقاء الخزاعى كانت له دار بمكة ، والدار هنا معناه القسم من البلد يعيش

فيه الخزاعيون من أصحاب بديل وكلهم حلفاء المكيين وجيرانهم ، وكان فى المدينة أيضاً ثقفيون وهذليون وعذريون وكل جماعة تعيش حياتها فى أمان نظام الحلف والإجارة والعرف القبلى العام .

ومهما كانت أقوال كُتَّاب العرب فإن رجال مكة قبل الإسلام كانوا فى جملتهم عقلاء أَكْفاء لأن نظام القبيلة وحياة الخطر التى يعيشها الناس دون حكومة لم تكن تأذن بولاية عاجز .وقد رأينا قصياً يوصى برياسة مكة قبل موته لابنه عبد مناف ولم يكن أكبر ولده إنما كان الأكبر عبد الدار ، وأمثال هذه الأمور لا تتم إلا باتفاق بين الشيوخ ، ولهذا نجد عبد الدار يسلم برياسة أخيه والقبيلة تعوضه عن ذلك ببعض المستويات الشرفية مثل اللواء . وبعد وفاة هاشم تصير الرياسة لأخيه المطلب ولكننا لا نلبث أن نراه يتنازل عن هذه الرياسة لابن أخيه عبد المطلب وكان شاباً ولكن الأمر هنا أمر سلامة القبيلة ، والسلامة تحتاج إلى كفاية ، ولهذا فإننا نجد بقية بيوت مكة تسلم برياسة عبد المطلب بعد معارضات طفيفة .

وعندما ظهر عجز أبى طالب عن سياسة أمور مكة وأهملته بيوت أصحاب المال من مخزوم وعبد شمس وهصيص نجده يسلم بالأمر ويقنع بالرياسة الشرفية والسقاية والرفادة تاركاً شئون التجارة لمن هو أقدر منه ، وخصومة بنى عبد شمس لبنى هاشم لم تصل قط إلى العدوان السافر وحلف الفضول لم يدخل قط فى صراع فعلى مع حلف الأحلاف لأن الحيين نظرا أولاً لخير قريش كلها . ورغم كل شىء فإننا نرى أن قريشاً تحرص أشد الحرص على علاقات حسن الجوار والمصلحة المشتركة بين قريش وخزاعة والأحابيش وثقيف فى الطائف سارت دائماً سيراً طيباً ، وإن كان بنو كعب الخزاعيون ظلوا دائماً على علاقات ود متينة مع بنى هاشم الذين ينحدرون من كعب بن لؤى ، والاثنان معاً كانا يُعرفان بالكعبين . أما حلف الأحلاف فقد اعتز دائماً بتأييد بنى بكر بن عبد مناة الكنانيين ، وسيظل الوضع على تلك الحال بعد مجىء الإسلام وحتى فتح مكة على ما سنراه .

وسنرى عند اصطدام قريش مع دعوة الإسلام أن القبيلة كلها تتصرف فى عقل

وبنظام ، فكبار الشيوخ يتولون الأمر ولكنهم يدعون التصرف للجيل الذى يليهم من كهول القبائل ، ولكن عندما يعجز الكهول ويتفاقم الأمر وتتهدد وحدة القبيلة ومصالح قريش سنرى أن الشيوخ يتولون الأمر بأنفسهم ويحاولون التفاهم فى كثير من الروية مع محمد ﷺ وأبى طالب ، وتكون لقاءات طويلة سنتحدث عنها فى حينها. وعلى الرغم من اجتهاد المؤرخين بعد الإسلام فى تشويه صورة قريش الوثنية ظناً منهم أن ذلك يزيد من قدر الإسلام علواً فإن حقيقة الصورة عندنا واضحة ، فالنظام مستتب وهناك قانون عرفى عام متبع ، ولعله يبدو غريباً أن ساكن مكة كان آمناً على نفسه وماله قبل الإسلام مما أصبح عليه فى العصر الأموى .

وإذا أردنا أن نصور كفاية النظام المكى قبل الإسلام نقارنه بالنظام فى يثرب فبينما كانت مكة بالفعل تتمتع بنظام مستقر متماسك نجد أن يثرب كانت مسرحاً لنزاعات وصدامات قبلية خطيرة ، وواقعة بُعَاث الدامية وقعت قبل هجرة الرسول إلى المدينة وهى تصور قلق المجتمع اليثربى بالمقارنة مع المجتمع المكى ، ثم إن وجود الجماعات اليهودية القوية فى يثرب وسيطرتها على الحياة الاقتصادية للمدينة يدل على أن الأوس والخزرج كانت تنقصهما الكفاية والحكمة والنظام ، وأكبر دليل على ذلك أن الوحدات القبلية داخل يثرب كانت تعيش فى أمن آطامها أى حصونها وكل قبيلة تعتصم من الهيعات والاشتباكات داخل أطمها . ويبدو كذلك أن القبيلة كانت تضع ذخائرها وربما نساءها وولدانها فى الأطم بالليل . ومن هذا كله لا نجد شيئاً فى مكة ، لأن المكيين عرفوا كيف يسيطرون على العدوان داخل بلدهم واجتهدوا فى حل مشاكلهم فيما بين بعضهم وبعض ، وكذلك وثقوا العلاقات مع القبائل حول مكة فأمنوا فى بلدهم ، ولم يعودوا يحتاجون إلى الحصون .

وقد لاحظنا فى كلامنا على حرب الفِجَار كيف أن قريشاً عرفت كيف تنظم أمورها ، وعندما تحرج الأمر اختارت للقيادة بنى أمية الأكبر فقاموا بواجبهم خير قيام ، وقد أظهرت هذه الحرب قدر بنى أمية بجماعتهم الأعياص والعنابس ، وبعد هذا النصر أصبح بنو أمية بالفعل أنداداً لبنى هاشم ، وسيكون لذلك كله أثر فى موقف المكيين من الإسلام .

والخلاصة ، وقبل الدخول فى مجىء الإسلام وموقف قريش منه نقول : إن قريشاً فى مجموعها كانت قبيلة ناجحة وسط القبائل : عرفت كيف تهيىء لنفسها مكاناً صدراً بين القبائل فى الجزيرة كلها قبل الإسلام ، وكان نظامها الداخلى يجمع بين النظام القبلى وبعض خصائص الحضر ، وقد أفاد القرشيون من النظام القبلى وما تأتَّى عن استقرارهم فى مكة من خصائص الحضر ، وعرفوا كيف يسوسون بلدهم ويقومون بمسئولياتهم تجاه التجارة وتجاه الكعبة ، وأفادوا من الوجهين أكبر الفائدة .

* * *